مع الغزالي في عزلته وتأييده

للأستاذ الدكتور
جلال شوقي
عميد كلية الهندسة ـ جامعة قطر

عرضنا في دراسة سابقة [١] للقصائد والأشعار التي وردت في تراث حجة الإسلام الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) = (١٠٥٨ - ١١١١ م) ، حيث قسمناها إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول منها يشتمل على قصائده الكاملة ، والقسم الثاني يضمُّ أشعاراً متفرقة نسبت إليه ، بينما يشير القسم الثالث إلى أشعار الغزالى التى لم تجر دراستها بعد ، ولما كان القسم الأول يشتمل - فيما يشتمل - على قصيدة طويلة تعرف « بالقصيدة التائية » ، عثرنا على مخطوطة فريدة لها ، فقد رأينا من المناسب - ونحن نحتفل بمرور تسعة قرون على وفاة الغزالي - أن نُفرد لها هذه الدراسة .

ولقد ظهرت هذه القصيدة منذ أكثر من خمسين عاما دون توثيق ، وذلك في آخر كتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » للغزالى ، طبعه محيي الدين صبرى الكردى [٢] فى

---

(١) « الشعر في تراث الغزالى - مخطوطات تنشر لأول مرة » - كتاب « الإمام الغزالي - الذكرى المئوية التاسعة لوفاته » - جامعة قطر ، سنة ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م ، الصفحات : ١٤٣ - ١٩٣ .

(٢) راجع كتاب « مؤلفات الغزالي » للدكتور عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية ، الكويت ، سنة ١٩٧٧ م ، صفحة ٤٥٧ .

القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م ، وذكر فيه أنه طبعها (ومعها القصيدة الهائية - في النفس) على نسخة مخطوطة صحيحة دون تحديدها ، كما صدرت طبعة ثانية لنفس الكتاب وللقصيدتين سنة ١٩٧٥ عن دار الآفاق الجديدة ببيروت دون بيان مصدر القصيدتين ، وبالتالى فإنَّ ما نُشر يعُوزه التوثيق العلمى .

ولقد سنحت لى الفرصة عند الاطلاع على مخطوط مكتبة جامعة القاهرة رقم : ٢٣٣٤٥ الذى يحمل العنوان : « المضنون به على غير أهله » والمنسوب للإمام الغزالى ، أن أقف في نهاية الكتاب على قصيدتين منسوبتين لحجة الاسلام ، واحدة هائية في أحوال النفس ، وأخرى تائية في التصوُّف ، وقد ضمَّنا في هذه الدراسة صورا لصفحاتها الأولى والأخيرة ، وبذلك فإن ما نُقْدِم على نشره هنا هو أول نشر موثق محقق لهاتين القصيدتين[1] ، حيث لم ترد - إلى حد علمى - أية إشارة إليهما فى أى من فهارس المخطوطات بخزانات الكتب المعروفة بحفظها للتراث العربي ، ومن هنا كانت أهمية هذا المخطوط الذى عثرنا عليه في مكتبة جامعة القاهرة ، ولعل تطابق تاريخه وهو سنة ٨٨٢ هـ = ١٤٧٧ م مع ما جاء بالنص المنشور بأنه مأخوذ عن مخطوط كتب في نفس التاريخ ، لعل هذا التوافق يوحى بأن ناشر التائية ربما يكون قد وقف على هذا المخطوط ، ونقل عنه ما نُشر ، بيْد أن غياب تحديد المخطوط أفقد النشر منزلته العلمية .

هذا ويقتضينا منهاج البحث أن نتصدى بالدراسة أولا للمراحل الفكرية التي مر بها الإمام الجليل ، ومن ثم فإننا نعرض ببعض التفصيل إلى مراحل من حياة الغزالي ، ارتبطت بتوجهه إلى العزلة والخلوة في أخريات حياته ، واتخاذه لموقف واضح محدد من التصوف ، وبسط آرائه فيه مع مقارنة ذلك بما تضمنته القصيدةالتائية من فكر صوفى ، وميل البعض إلى التشكيك في نسبة القصيدة إلى الامام الغزالى على أساس أن فيها ما يوحي بتقبُّل أفكار الحلول والاتحاد والوصول ، وهى أفكار عارضها الغزالي في كتاباته .

---

(١) حققنا « القصيدة الهائية في النفس » في بحثنا الآخر المتقدم ذكره .

ولعل المرحلة التى تهمنا بوجه خاص في حياة الغزالي هى المرحلة التي بدأت بحالة الشك عند الإمام حوالي عام ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م ، وبجنوحه إلى العزلة والخلوة أكثر من عشر سنين ، تكشفت له فيها أمور كثيرة ، وخرج فيها على الناس بإنكار للفلسفة ، وتوقير وتعظيم للإيمان المطلق ، وللمجاهدة للوصول بالنفس إلى حالة الصفاء المؤدى - مع الجهد والعزم والمثابرة - إلى مشاهدة الحق ، وهى حالة العارفين بالله من أهل التصوف .

لا شك أن هذه الدراسة - فى رأيي - لازمة وضرورية لإمكان البحث في صحة نسبة القصيدة للغزالي ، وللوقوف على مدى ارتباطها بالظروف والمجاهدات التي مر بها حجة الإسلام ، ومدى توافق محتواها مع أفكار الغزالي وكتاباته .

فبعد عرض مقتضب لسيرة الغزالي ولأهم مصنفاته ، نشير إلى الدوافع التي أدت به إلى حالة العزلة والاعتكاف ، والسعى المتجرد وراء الحقيقة ، وحدت به إلى دراسة مختلف المذاهب ، ووصوله إلى طريق التصوف وارتياحه إليه ، وتوقيره لأهله ، ثم نعقد مقارنة بين موقف الغزالي ومضمون القصيدة بعد تحقيقها لنخلص إلى الحكم على مدى صحة نسبتها إلى الغزالي .

أهم مؤلفات الغزالي وتسلسلها الزمنى

مما لا شك فيه أن الإمام الغزالى كان عظيم الإنتاج غزير العطاء ، ولسنا هنا في معرض الحديث عن هذا الفيض من الفكر الإنسانى وإنما أردنا أن نبين أهم مؤلفات الغزالي مع محاولة ترتيب تواريخ تصنيفها حتى يمكننا متابعة المراحل الفكرية والعقائدية التي مر بها حجة الإسلام :

١ - « مقاصد الفلاسفة » . : ٤٨٧ هـ

٢ - « تهافت الفلاسفة » ، وهو أهم كتبه الفلسفية . : ٤٨٨ هـ

٣ - « معيار العلم في فن المنطق » ، ألّفه قبل سفره إلى الشام . قبل نهاية : ٤٨٨ هـ

٤ - « إحياء علوم الدين » ، ويتكون من أربعة أجزاء هى : العبادات - العادات - المهلكات - المنجيات ، وينقسم كل جزء إلى عشرة كتب . وللغزالي عليه مختصرات منها : الوجيز والمبسوط . من ٤٨٩ هـ إلى ٤٩٥ هـ

٥ - « مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار » ويمثل قمة ما كتبه في التصوف .

٦ - « المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال » ويُضمِّنه سيرته الفلسفية ، وتقلُّبه بين المذاهب ، وحيرته وشكه ، ووصوله في النهاية إلى بر الأمان بطريق الصوفية . من ٥٠١ هـ إلى ٥٠٢ هـ

الغزالى يجنح إلى العزلة

إنه عندما سئل الإمام الغزالى عن السبب الذي صرفه عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلاب ، وما الذي دعاه إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة قال[1] :

« إنه قد حصل معى من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي .

وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكفِّ النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، والتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله عز وجل ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، وقطع الآمال ، والهرب من الشواغل والعلائق ، ومن مخالطة الخلائق . »

---

(١) عن « مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم » لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده (٩٠١ - ٩٦٨ هـ) = (١٤٩٥ - ١٥٦١ م) ، طبعة القاهرة ، الجزء الثانى ، الصفحات : ٣٣٦ - ٣٣٩ ، كذا « المنقذ من الضلال » بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ص ١٤١ وما بعدها .

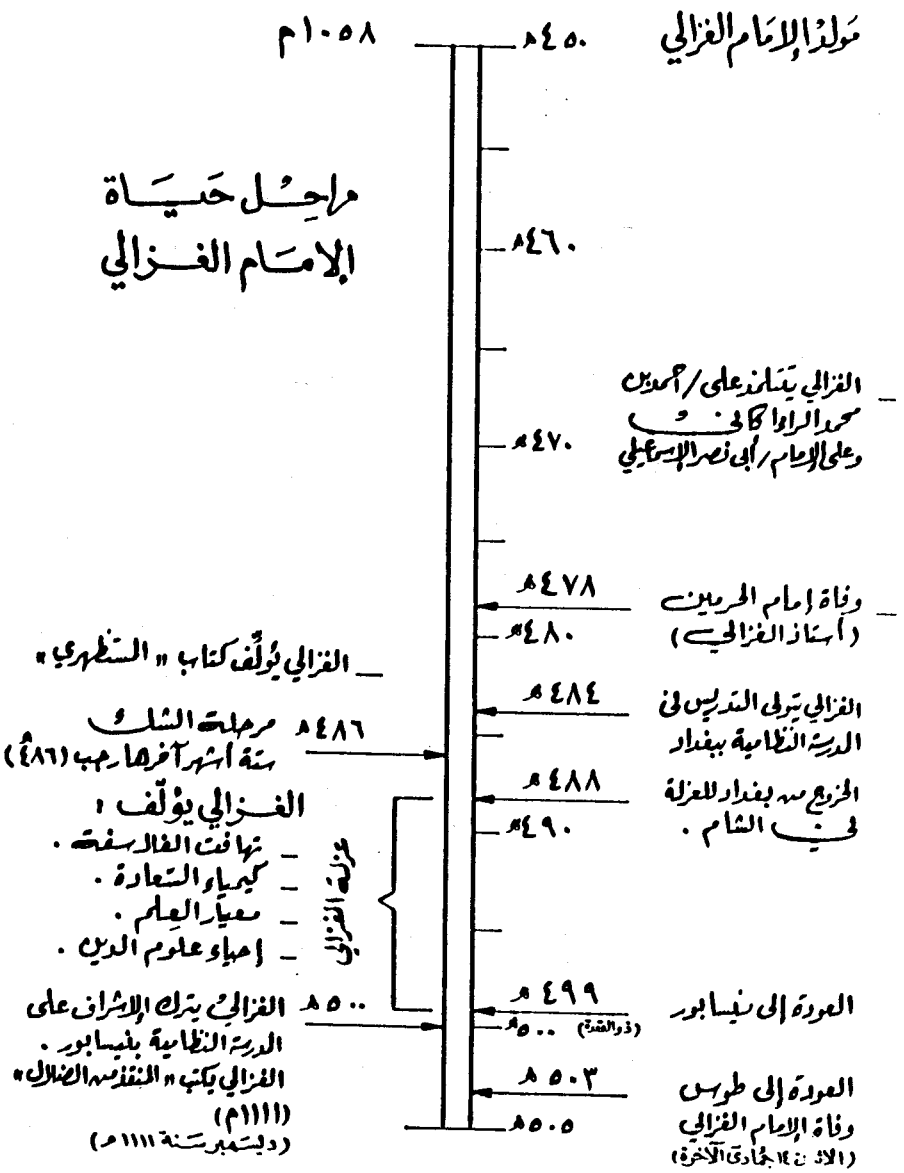

شكل (١)

تسلسل زمني لمراحل حياة الغزالي ولتواريخ تصنيف أهم مؤلفاته .

ويستطرد الغزالي فيقول[١] :

« ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بى من كل جانب ، ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، وإذ أنا مقبل فيها على علومٍ غير مهمةٍ ولا نافعةٍ في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل مشوبة بطلب الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف الهلاك ، وأنى قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم عزمى على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحلُّ العزمَ يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر عنه أخرى ، ولا تصْدُق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرةً ، إلا وَتُحمِل عليها جنْدُ الشهوة حملة فتنفِّرها عشيةً ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المُقام ، ومُنادي الإيمان ينادي : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن إلى الآخرة ، فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق ، فمتى تقطع ؟ ، فعند ذلك تنبعث الرغبة ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان الغرور الغدَّار ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ، . فإنها سريعة الزوال ، فإذا أذْعنت لها ، وتركت هذا الجاه الطويل العريض ، والشأن المنظوم ، الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر المُسلَّم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفَّت إليك نفسك ، فلا يتيسر لك المعاودة » .

ويمضى الإمام الغزالى قائلا :

« فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر ، آخرها[٢] رجب سنة ست[٣] وثمانين وأربعمائة (٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م) ، وفي هذا الشهر تجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله تعالى على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت

---

(١) نفس المرجع السابق ، كذا « المنقذ من الضلال » .

(٢) فى نسخ : أولها (٣) في بعض النسخ : ثمان .

أجاهد نفسي أن أدرِّس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفة [إليّ] ، وكانوا نحو ثلاثمائة نفر ، فكان لا ينطق لساني بكلمةٍ ، ولا يستطيعها البتة ، حتى أَوْرثَتَ هذه العُقْلةُ في اللسان حُزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنساغ لى شَرْبة ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدَّى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم ، ثم إني لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهَّل إلى قلبى الإعراض عن المال والجاه ، ومفارقة الأولاد والأحباء ، والأوطان والأصحاب ، فأظهرتُ عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر نفسي سفر الشام . . . »

على هذا النحو الدقيق البديع ، الفياض بالمشاعر والمجاهدات ، يصف الغزالي ما كان يعتمل في نفسه من صراع بين البقاء حيث الصيت والجاه ، والأهل والولد ، وبين الفرار إلى الله ، بعدما تبين له أن ما يقوم به من تدريس وتعليم هو من عرض الدنيا ، وهو لا محالة يشوبه رياء وتخييل وينطوى في الحقيقة على انغماسٍ في الشواغل وسعيٍ إلى شهرة ، وأن الاتجاه الخالص إلى الله تعالى يقتضي الإعراض عن كل هذا ، والعزوف عنه ، والتوجه بالكلية إلى المولى عز وجل ، لاسيما وقد قرب الرحيل الى دار الفناء ، ولعلنا نحس من كلمات الغزالي قسوة المعاناة ، وشدة المجاهدة النفسية ، التي لم تعتصر قلب الإمام الفاضل فحسب ، بل إن الأمر تعدَّى ذلك إلى اعتلال جسمه .

تعرَّض الغزالي لهذا الصراع الداخلي العنيف كى ينفض يده من مشاغل الدنيا ، ويهرول إلى مولاه ، ولا غرو فهو القائل في مصنفه « رسالة في المعرفة »[1] :

« اعلم أن المعرفة معرفتان : معرفة الحق ، ومعرفة الحقيقة ،

---

(١) « ثلاث رسائل في المعرفة لم تُنشر من قَبْل » للإمام الغزالي ، تحقيق الدكتور محمود حمدي زقزوق ، مكتبة الأزهر ، سنة ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م ، صفحة ٣١ .

فمعرفة الحق : هى الفرار من النفس ، والفرار سبب النجاة والخلاص من بلاء النفس ، ومن سَمِعَ نفسه ، فسكن من الفِرار فهو مغرور ، ولا يتيسر الفِرار عنها إلا بعد [معرفة] صفاتها الجلية والخفية ،

ومعرفة الحقيقة : هى الفرار مع الله تعالى ، ولا يحصل الفرار مع الله إلا بعد معرفة صفاته الذاتية والمعنوية . » .

وأخيرا ينحسم الصراع ، ويعقد حجة الإسلام العزم على الفرار إلى الله تعالى ، ويتخذ قرارا بالخروج من بغداد قاصدا الشام ، حيث دامت عزلته هناك قرابة إحدى عشر سنة ، ولعل فترة العزلة هذه هى التي نَحَتْ به إلى السلوك الصوفي ، وحَدَتْ به إلى كتاباته وأشعاره الصوفية .

مع الغزالى فى عزلته

يقول الإمام الغزالي في معرض حديثه عن الفترة التي اعتكف فيها في مسجد دمشق في السنوات : (٤٨٨ - ٤٩٩ هـ) = (١٠٩٥ - ١١٠٥ م) حيث كان يصعد منارة المسجد طوال النهار ويغلق بابها على نفسه . عن هذه المرحلة من عمره يقول حجة الإسلام[1] :

« ثم دخلت الشام وأقمت فيه بمدينة دمشق قريبا من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله ، كما كنت حصلته من علوم الصوفية .

فعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عِلْمهم قطع عقبات النفس ، والتنزُّه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تجلية القلب عن غير الله ، وتحليته بذكر الله .

---

(١) نفس المرجع السابق ، صفحة ٣٣٨ .

وكان العلم أيسر علىَّ من العمل إذ ذاك ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل[١] :

« قوت القلوب » لأبى طالب المكي ، رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلي ، وأبى يزيد البسطامى ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعتُ على كُنْهِ مقاصدهم العلمية ، وحَصَّلت ما يمكن أن يُحصَّل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصِّهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات » .

ويستطرد الغزالي قائلا :

« فعلمتُ يقينا أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، فقد حصَّلتهُ ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك » .

أصول الايمان

يقول الإمام الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال »[٢] :

« وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستُها ، والمسالكِ التي سلكتُها في التفتيش عن صِنْفي العلوم الشرعية والعقلية :

- إيمان يقيني بالله تعالى ،
- وبالنبوة ،
- وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل مُعينٌ مُحرر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها » .

---

(١) « المنقذ من الضلال » ، صفحة ١٣٩ وما بعدها .

(٢) صفحة ١٤١ ، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الأصول .

بهذه العقيدة الإيمانية ، وباعتكاف الغزالي بالمغارة الغربية من الجامع بدمشق زهاء عشر سنين أو يزيد ، اطلع فيها على كتب المتصوفة ودرس سلوكهم ، جاهد الإمام نفسه جهاد الأبرار ، وحمَّلها مشاق العبادات ، وبلاها بأنواع القرب والطاعات ، حتى قيَّض الله له أن يصبح قطب زمانه ، ثم يسَّر له العودة لمجلس الدرس والوعظ لا طمعا في جاه أو شهرة أو صيت ، وإنما مبتغيا وجه الله تعالى ، متكلما على لسان أهل الحقيقة ، محدثا بكتابه « الإحياء » ، ولعلَّه وهو في عزلته ، وفي غمرة تأثره بالمنحى الصوفى وتقديره له ، أن يكون قد كتب « القصيدة التائية » التى نحن بصدد تحقيقها .

الغزالي يعود لنشر العلم

ويُنسب إلى الإمام الغزالي ـ بعد خروجه من عزلته ـ قوله[1] :

« ويسَّر الله لي الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة (٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م) ، وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين (٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) ، وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة .

وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب مدة العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال ، مما يخطر إمكانه أصلا بالبال ، والله تعالى مُقلِّب القلوب والأحوال ، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن .

فأنا أعلم أنى وان رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ، فإن الرجوع عود على ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي يُكتسب به الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وأنا الآن أدعو إلى العلم الذي يُترك به الجاه ، ويُعرف به سقوط رتبة الجاه .

---

(١) عن « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده ، طبعة القاهرة ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٤٠ ، كذا « المنقذ من الضلال » ، صفحتا ١٥٩ ، ١٦٠ .

هذا هو الآن نيَّتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله تعالى ذلك مني ، وأنا أبغي أن أُصلح نفسي وغيري ، ولست أدرى أأصل إلى مرادي ، أم أُحرم عن غرضي ، لكن أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول لى ولا قوة إلا بالله ، وأني لم أتحرك ، ولكنه حرَّكني ، وأني لم أعمل ، ولكنه استعملني ، وأسأله أن يصلحني أولا ، ثم يُصلح بي ، وأن يهديني ، ثم يهدي بي ، وأن يريني الحق حقا ، ويرزقنى اتباعه ، ويُريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه . آمين . »

موقف الغزالي من التصوف

ومما يجدر ذكره عن رأى الغزالي في الصوفية ما جاء في كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم » ، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده (٩٠١ - ٩٦٨ هـ) = (١٤٩٥ - ١٥٦١ م) حيث يقول على لسان الإمام الغزالي[١] :

« . . . . ودُمْت على ذلك مقدار عشر سنين[٢]، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به :

أنّي علمتُ يقينا أن الصوفية هم السالكون بطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتَهم أحسن السِّيرَ ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلى الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هوخير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مُقتبسةٌ من مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به .

وبالجملة ، فماذا يقول القائل في طريقةٍ طهارتُها تطهِّر القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، وتحريمتها استغراق القلب بذكر الله تعالى ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ، وهذا آخرها ، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكشف من أوائلها ، وهو على التحقيق

---

(١) الجزء الثانى ، الصفحتان ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، كذا « المنقذ من الضلال » ، ص ١٤٤ وما بعدها .
(٢) يشير إلى فترة عزلته وخلوته .

أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم - وهم في يقظتهم - يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ، ويقتبسون منهم فوائد .

ثم ترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق العبارة ، فلا يحاول مُعبرٌ أن يعبرٌ عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه .

وعلى الجملة ، ينتهى الأمر إلى قُرْبٍ يكاد يُتخيَّل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بيَّنا وجهَ الخطأ فيه في كتاب « المقصِد الأسنى » ، بل الذي لابَسَتْه تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أذكُرُه فَظُنَّ خَيْراً وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ

وبالجملة ، فمن لم يُرزق منه شيئا بالذوق ، فليس يُدْرِك من حقيقة النبوة إلا الاسم ، وكرامات الأولياء على التحقيق هى بدايات الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه . »

رفض الغزالي لفكرتي الاتحاد والحلول

يحذِّر الغزالي تحذيرا قاطعا العارفَ أن يدعى أنه أدرك الذات الإلهية ، فضلا عن أن يزعم الاتحاد بها أو حلولها فيه[1] ، فالله يتجلى ظاهراً من جهة أفعاله لكنه يظل باطناً لشدة ظهوره .

وبالتالي ينفي الغزالي عن المتصوفة أنهم ذهبوا في التعبير عن استغراقهم في الحق إلى حد القول بالحلول أو الاتحاد ، أى أن التسوية بين ذاتين لا يمكن أن تحل إحداهما في الأخرى أو تتحد بها .

وشبيه بذلك ما يقع فيه الطفل عندما يسوِّي بين الصورة الملونة وانعكاسها بألوانها في المرآة ، مع أن العقل يقرر دون جهد كبير أن هناك فارقا جوهريا بين المرآة التي لا لون لها في

---

(١) راجع بحث الأستاذ محمود قاسم في مهرجان الغزالي بدمشق ، سنة ١٩٦١ م ، صفحة ١٧٣ .

ذاتها ، وبين الصورة التي تنعكس فيها ، والصبى الَغرُّ أو البدائي هو الذي متى سأل إنسانا تنعكس صورته في المرآة ربما ظن أن الإنسان قد انتقل فعلا إلى المرآة وحل فيها .

ثم إن الحلول لا يُتصور بين عبدين ، فكيف يُتصوَّر بين العبد وربه الحلول الحقيقي ؟

يقول الغزالي : هو انطباق جوهر على جوهر ، أو جسم على جسم ، أو عرَضٍ في جوهر ، وهذا يستحيل إذا كانت النفس حادثة ، ولا وجود لها إلا بإرادة خالقها ، فكيف يُتصوَّر أن تكون هي هو ؟ وإذا نحن سلَّمنا بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحدة ، فكيف لا نُسلِّم به لجميع النفوس ، وعندئذ يصبح العالم كلُّه آلهة [1] .

ويمضي الغزالي في دحض فكرة الاتحاد فيقول[1] :

« . . . أما الاتحاد فهو أظهر بطلانا من الحلول ، لأن قول القائل : إن العبد صار هو الرب ، كلام يتناقض مع نفسه .

إنه في حالة الاتحاد بين ذاتين ، إما أن تظل كل منها موجودة ، ومعنى ذلك أن إحداهما لم تصدر عن الأخرى ، بل تظل كل منهما قائمة بنفسها ، وإذن فليس هناك اتحاد .

مثال ذلك أن الإرادة والعلم والقدرة توجد في ذات واحدة ، ولكنها ليست متحدة ، لأنه يبقى من المقرر أن الإرادة غير العلم والقدرة ، وكذا الأمر بالنسبة إلى كل من الصنفين الآخرين .

أما الاحتمال الثاني ، فهو أن يقال : ربما تفني إحدى الذاتين وتظل الأخرى موجودة ، وهنا يلجأ الغزالي إلى استدلال عقلي يقرر له أنه لا يمكن الحديث هنا عن نوع من الاتحاد ، إذ كيف يتحقق الاتحاد بين موجود ومعدوم .

أما الاحتمال الثالث والأخير ، فهو القول بانعدام الذاتين معا ، ولكن ليس المرء في حاجة إلى بيان فساد هذا الاحتمال ، إذ ينبغي الحديث هنا عن الانعدام لا عن الاتحاد[1] . »

---

(١) راجع بحث الأستاذ محمود قاسم في مهرجان الغزالي بدمشق ، سنة ١٩٦١ م ، صفحة ١٨٣ .

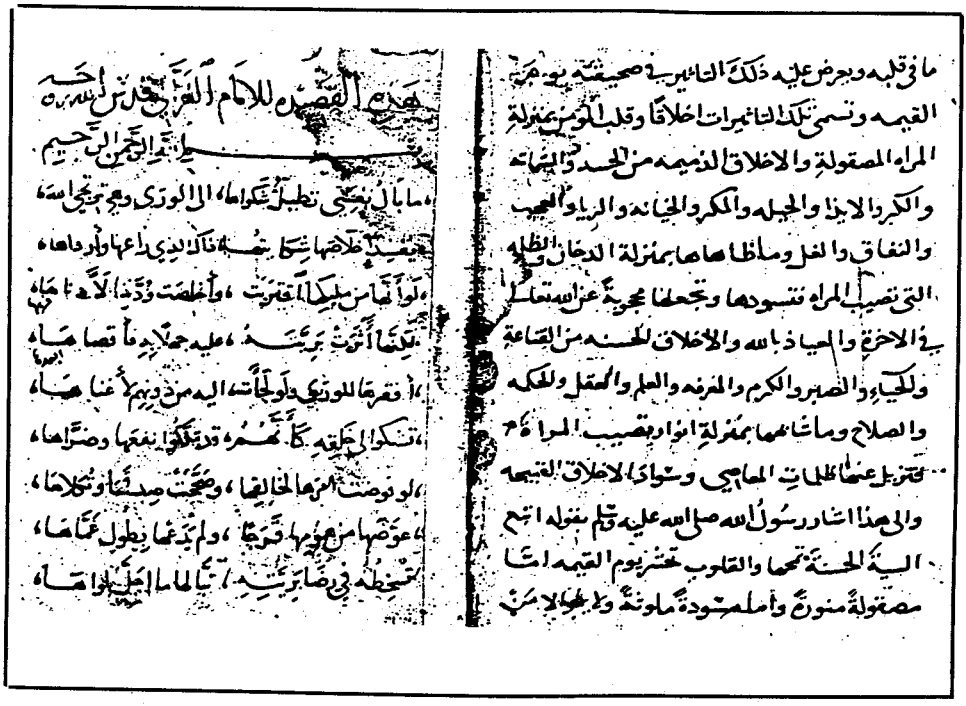

شكـــل (٢)

آخر صفحة من كتاب « المضنون به على غير أهله » ، المنسوب للغزالي ،
وأول صفحة من القصيدتين الهائية والتائية المنسوبتين إليه أيضا .
(عن مخطوط مكتبة جامعة القاهرة ـ رقم : ٢٣٣٤٥)

متن القصيدة التائية
للامام الغزالي [١]

« قيل هذه التائية له أيضاً
والله أعلم

صفحة(٧)

[١]بِنورِ تَجَلِّ وَجْهِ قُدْسِكَ دَهْشَتي ... وَفيكَ عَلَى أن لاَخَفاً بِكَ حَيْرَتي
[٢]فَيا أقْرَبَ الأشْياءَ من كُلِّ نَظْرَةٍ ... لأبْعَدُ شَيْءٍ أنْتَ عَنْ كُلِّ رُؤيَةِ
[٣]ظَهَرْتَ فَلَماً أنْ بَهَرْتَ تَجَلِّياً ... بَطَنْتَ بُطُوناً كادَ يَقْضي بِرِدَّتي[٢]
[٤]فَأوْقَعْتَ بَيْنَ العَقْلِ والحسِّ عِندما ... خَفيتَ خِلافاً لا يَزولُ بصَلحَةِ
[٥]إذَا مَا ادَّعَى عقْلٌ وُجُودَكَ مُنْكِراً ... عَلَى الحِسِّ ما يَنْفيه قَالَ لَهُ اثبِتِ
[٦]وَذَلِكَ أنَّ الحِسَّ يَنفيكَ صُورةً ... يَراهَا وَيَرْضَى العَقْلُ فيكَ بِحُجَّةِ
[٧]فَمِنْ هَاهُنَا مَنْشَا الخِلاف ويصعُبُ الـ ... ـوفاقُ بخلفٍ في اقْتِضَاءِ الجِبلَّةِ[٣]
[٨]فإنْ قُلْتُ لَمْ أبْصِرْكَ في كُلِّ صُورَةٍ ... أراهَا أحَالَتْ ذاكَ عَيْنُ بَصِيرَتي

صفحة (٨)

[٩]وإنْ قُلْتُ إنِّي مُبصرٌ لَكَ أنْكَرَتْ ... مقَالي وَلَمْ تَشْهَدْ بِذا لي[٤] مُقْلَتي
[١٠]تَجَلَّيْتَ مِني فيَّ حتىً ظَهَرْتَ لي ... خَفيتَ خَفَاءً دَقَّ عَنْ كُلِّ فِكْرَةِ
[١١]عَلَى أنَّه لَمْ يَبْقَ لي جَبلٌ رَأَى ... تَجَلِّيكَ لي إلاَّ وَدُكَّ بَصَعْقَةِ
[١٢]ونَاجَيْتَني في السرِّ مني فَأَصْبَحْت ... وَقَدْ طُوِيَتْ عَمَّا سِوَاكَ طَوِيَّتي
[١٣]فَمَا فيَّ فَضْلٌ عنْكَ يخْطُرفيه لي ... سِوَاكَ فَوَقْتي فِيكَ غَيْرُ مُوَقَّتِ

---

(١) عن مخطوط مكتبة جامعة القاهرة ـ رقم : ٢٣٣٤٥ .
(٢) الردَّة : الاسم من الارتداد ، أى الرجوع عن العقيدة .
(٣) الجبلَّة : الخِلْقة .
(٤) في متن القصيدة : به لى ، وفي أعلى الصفحة ورد التصحيح : بذالي .

[١٤] وديعةُ روحِ القُدسِ نَفْسُك رُدَّهاَ فَمِنْ وَاجِبَاتِ العَقْلِ رَدُّ الوَدِيعَةِ
[١٥] وَمَا رَدُّهاَ إلاَّ بتكميلها بِماَ يَليقُ بِهَا مِنْ كَسْبِ كُلِّ فَضِيلةِ
[١٦] فَمَهْماَ تَجَلَّت من كدُورَاتِ عَالَمِ الطَّبيـ ـعَه شَفَّتْ جَوْهَراً وَتَجَلَّتِ
[١٧] نَصحتُكَ جهْدِي إنْ قَبِلْتَ فلاَ تكُنْ علَىَ حُكْمِ غِشٍّ حامِلاً لِنَصِيحَةِ
[١٨] وَغَايَةُ مَقْدوُري فَقُلْتُ وَإنَّماَ قَبوُلُكَ مماَّ لَيْسَ في وُسْعِ قُدْرَتِي
[١٩] وَهَلْ مُمْكِنٌ إسْعاَدُ منْ قَدْ جَرىَ لَهُ قَلَمٌ في اللَّوحِ يَوْماً بِشِقْوَةِ

صفحة (٩)

[٢٠] يَظُنُّ الفَتَى لَذاَّت دُنْياَه نِعْمَةً ومَاَ هِي إلاَّ نقْمَةٌ في الحَقيقَةِ
[٢١] وَيبْلُغُ مِنْهُ الجَهْلُ مَا لَيْسَ يَبْلُغُ الـ عَدُوُّ بِحَدِّ السَّيْفِ عِنْد الحفيظةِ[1]
[٢٢] وَنَفْسك فَاحْفَظْهاَ وَصُنْهاَ فَإنَّماَ سَعَادتُهَا في فِعْلِ كُلِّ مَشَقَّةِ
[٢٣] وخَالِفْ هَوَاهَا ما اسْتَطَعْتَ فإنَّه عَدُوٌّ لَهاَ يَبْغي لَهاَ كُلَّ نَكْبَةِ
[٢٤] لَعَمْري لقد أنْذَرْتُ إنْذاَرَ مُشْفِقٍ وجَاوزْتُ في الإيضَاح حَدَّ الوَصيَّةِ
[٢٥] فَقُمْ واسْعَ وانْهَضْ واجتَهِدْ وابْغ مُطْلقا بِذاَكَ عَلَىَ مَا فِيكَ سِرٌّ صَنِيعَةِ
[٢٦] فَإنَّكَ مِنْ نُورٍ مُضيءٍ وظُلْمَةِ بِماَ فِيكَ مِنْ جِسْمٍ ونَفْسٍ نَفِيسَةِ
[٢٧] تَسوُسُ الحَيَاةُ الجِسْمَ وهى مَسُوسَةٌ بِماَ فِيكَ مِنْ أسْرَارِ علمٍ مَصُونَةِ
[٢٨] فَشَيْطَانُ رَجْمٍ أنْتَ أو مَلَكٌ بِماَ تُعانِيه مِنْ فِعْلٍ قَبيحٍ وَعِفَّةِ
[٢٩] أَلاَ إنَّ لِي بالنَّفْس مِنِّي شَاغِلا بِهِ تَمَّ لِي مَا رُمْتُ مِنْ مِلْكيَّةِ
[٣٠] جَلَتْ شُبْهَةَ الإعْراَضِ عَنِّي بَدِيهَة تَوقَّد كالمِصْبَاحِ في جَوْهَرِيَّتِي

صفحة (١٠)

[٣١] رَأَيْتُ بِهَا النُّورَ الإلَهِي لاَيحاً وَرَاءَ سُتُورٍ للأمُورِ دَقِيقَةِ
[٣٢] فَحَقَّقْتُ مَا قَدْ كُنْتُ فِيه مُشكِّكاً وَعَايْنتُ مَا قَدْ كَانَ في سِرِّ خَفِيَّةِ
[٣٣] وأدركتُ ماَ المقصودُ مِنْ بَدْأتي وَمَا الـ ـمُرَادُ بإحْيَائي وَمَوْتي وَرَجْعَتي

---

(١) في المخطوط : الحفيظة ، وهو تصحيف واضح ، والحظيظة هنا بمعنى الغَضَب والحميَّة .

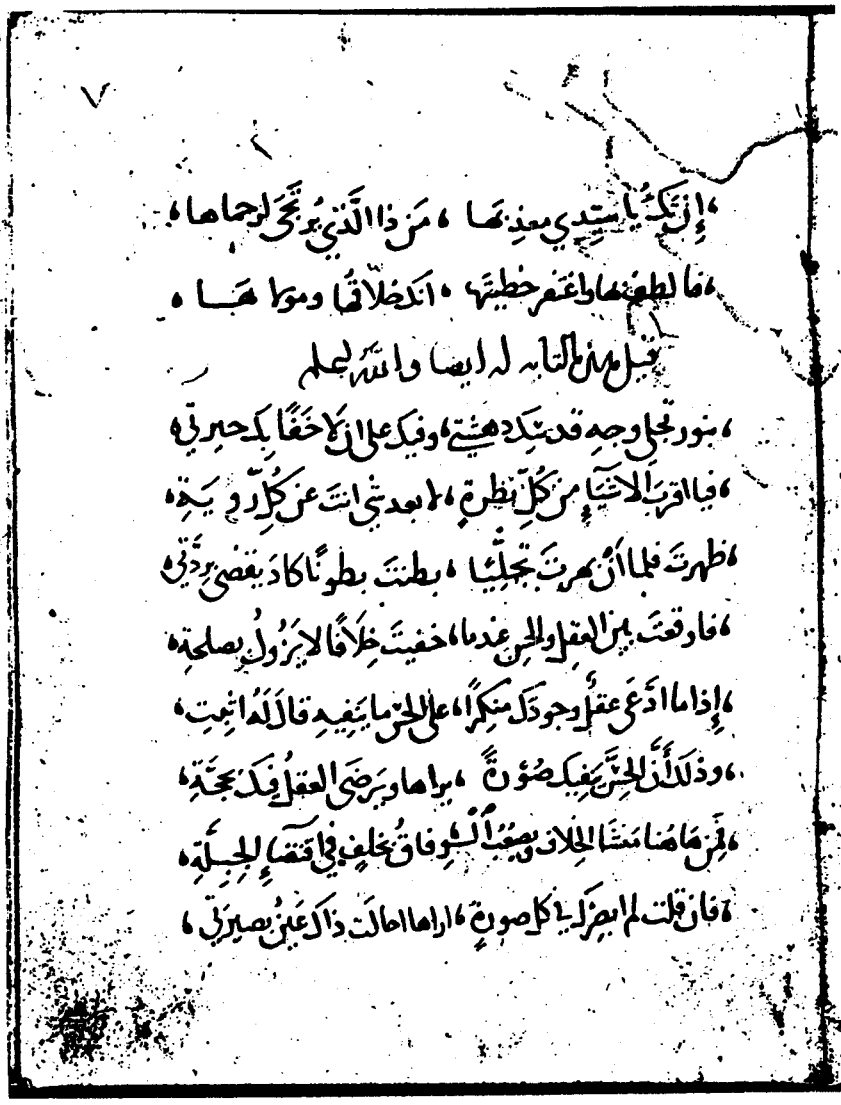

شكل (٣)

الصفحة الأولى من تائية الغزالى (القسم الثاني من مخطوط مكتبة جامعة القاهرة - رقم : ٢٣٣٤٥) .

[٣٤] بمرآةِ نَفْسٍ لاَحَ لِي في صِفَاتِهَا الـ ـمُقَابِلِ للكَوْنَيْنِ كُلُّ حَقِيقَةِ
[٣٥] وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي رِيبَةٌ في الَّذي استَرَا بَ مِنْهُ أُنَاسٌ في أمورٍ كَثِيرَةِ
[٣٦] فَأَلْقَت عَصَاهَا النَّفْسُ مِنِّي وأيْقَنَتْ بأن سَفَرِتْ عَنْ وَجْهِ نجحي سَفْرَتِي
[٣٧] يَدُلُّ عَلَىَ مَا قُلْتُهُ حَالَةُ الكَرَى إذَا رَكَدَ الإحْسَاسُ مِنْكَ برقْدَةِ
[٣٨] وقَابَلَ لَوْحُ الغَيب للنَّفْس مثْلَمَا تُقَابِلُ مرآةٌ بِأُخْرَى صَقِيلَةِ
[٣٩] فَيُطْبَعُ ما فِي اللَّوح في النَّفْس فهي من هنَاكَ بِعِلْمِ الغَيْبِ نُسْخَةُ نُسْخَتِي
[٤٠] وَلَوْ أمْكَنَ التجريدُ في كُلِّ يَقظةٍ لَشَاهدْتُ لاَ في النَّوْمِ كُلَّ عَجِيبةِ
[٤١] وَمَا هُوَ عِنْدَ اللهِ مَثَلٌ لِآدَمٍ وَلاَ ذَنْبُ ذَا مِنْ ذَنْبِ ذَاكَ بِنِسْبَةِ

صفحة (١١)

[٤٢] وَيَطْمَعُ جَهْلاً أَنْ سَيَدْخُلَ جَنَّةً وَيَغْبِطُ فيها نَفْسَهُ كُلَّ غِبْطَةِ
[٤٣] خِلاَفاً لِمَا يُعْطِي القِيَاسُ ولم يقم لَهُ العَقْلُ لَوْلاَ النقلُ بُرْهَانَ حُجَّةِ
[٤٤] أَيُخْرِجُ مِنْهَا آدَماً إثْمُ زَلَّةٍ وَيُدْخِلُ هَذَا فِعْلُهُ كُلَّ ذِلَّةِ
[٤٥] وَكَيْفَ تُرَى يُقْصَى الكريمُ بِهَفْوةٍ وَيُدْنَا اللَّئِيمُ النَّذْلُ مع كُلِّ وَرْطَةِ
[٤٦] وَلَوْلاَ حَدِيثٌ في الشَّفَاعةِ قد أتَىَ وَتَأْوِيلُ آيَاتٍ لإينَاسِ وحْشَةِ
[٤٧] لَمَا طَمِعَتْ نَفْسٌ تفوزُ بِجَنَّةٍ إذَا لَمْ تكُنْ مِنْ كُلِّ إثْمٍ تَبَرَّتِ[1]
[٤٨] وَمَعَ ذَا اختلافُ النَّاسِ في ذَاكَ ظَاهِرٌ تُقَامُ عَلَيْهِ وَاضِحَاتُ الأدلَّةِ
[٤٩] وَإذْ كَانَ قَدْ صَحَّ الخِلاَفُ فوَاجب عَلَى كُلِّ ذي عَقْلٍ لُزُومُ التَّقيَّةِ
[٥٠] وَتَرْكُ الأَمَانِّ الخَوَادع بَعْدَ أَنْ رَأَىَ بَأَبِيهِ آدَمٍ كُلَّ عِبْرَةِ
[٥١] وَلَوْ كَانَ لاَ يُجْزَىَ مُسِيء بِفِعْلِهِ وَلاَ مُحْسِنٌ ضَاعَتْ أُمُورُ البريَّةِ
[٥٢] وَمَا كَانَ فِي الإحْيَاءِ والمَوْتِ حكمةٌ وكَانَ مُحَالاً حُكْمُ كُلِّ شَرِيعَةِ

صفحة (١٢)

[٥٣] وَمُسْتَبْعَدٌ إحْيَاؤُنَا وَمَمَاتُنَا سُدًى لاَ لِمعنىً فيه سرٌّ مَشيَّةِ[2]

---

(١) فى المخطوط : تبرَّتِ ، أى تَبَرَّأت . (٢) أى مشيئة .

[٥٤]أَيَحْسُنُ أَنْ تُبْنَى قصورٌ مُشَيَّدَةٌ ... بِأَحْسَن أوْضَاعٍ وأَجْمَلِ بِنْيَةِ

[٥٥]وَتُهْدَمُ عَدَماً[1] لَا لَمعْنىً وإنَّهُ ... لَيَقْبُحُ هَذَافي العُقُول السَّلِيمةِ

[٥٦]وَذَلِكَ شَيءٌ فِعْلُهُ عَبَثٌ وَمَا ... يُدَبِّرُ هَذَا الكَوْنُ بالعبثيَّةِ

[٥٧]فَلَمْ يَبْقَ إلَّا أَنْ يُدبِّرَ أَمْرَهُ ... حَليمٌ مُحِيطُ العِلْمِ عَدْلُ الحكُومَةِ

[٥٨]فَمَا شَقِيَتْ نَفْسٌ أطاعَتْهُ رَهْبَةً ... وَمَا سَعِدَتْ نَفْسٌ عَصَتْهُ لِرَغْبَةِ

[٥٩]وَلكِنْ بِنُورِ العِلْمِ تَسْلَمُ هَذِه ... وَتَعْطَبُ جَهْلاً تيكَ[2] أَقْبَحُ عَطْبَةِ

[٦٠]فَيَا عَجَباً مِمَّنْ يَرومُ لِنَفْسِهِ ... خَلَاصاً وَلَمْ يَرْغَبْ بهَا عنْ جَرِيرَةِ

[٦١]وَمِنْ تَايبٍ مِنْ زَلَّةٍ لَا تُرى لَه ... دُمُوعٌ كأفْواهِ الغَمَامِ المُكِبَّةِ

[٦٢]وَمِنْ مُخْبِرٍ لَا يُعْجِزُ اللَّهَ قُدْرَةً ... عَلَيْه وَلَا يَخْشَى بَوَادِرَ نِقْمَةِ

[٦٣]وَمَنْ أَشْرَقَتْ أَنْوارُ مِرآةِ عَقْلِهِ ... عَلَى ظُلُماتِ الطَّبْعِ مِنْهُ تَجَلَّتِ

صفحة (١٣)

[٦٤]وَيَنْبُتُ غَرْسُ العَقْلِ في القَلْبِ مُثْمِراً ... لِبَاغِي الحَيَا اسْتِقْبَاحُ كُلِّ رذِيلةِ

[٦٥]وَمَا وَصَلَتْ نَفْسٌ إلَى عَالَمِ الصَّفَا ... بِمَا دُونَ تَحْصِيلِ العُلُومِ الجَلِيَّةِ

[٦٦]وَتَمْيِيزِهَا عَنْ نَوْعِهَا بِمَعَارِفٍ ... يُرَوِّجُهَا في عَالَمِ البَشَرِيَّةِ

[٦٧]وَقَدْ يَمْلَأ القَطْرُ الإنَاءَ فَيَمتَلِي ... بِهِ المَاءُ حَتَّى لَا مَزِيدَ لِقَطْرةِ

[٦٨]فَأَخْرَجْتَني عنِّي بِإدخَالِ مِحنَةٍ ... وأَوْحَشْتَني مِنِّي بِأُنْسِ مَحَبَّةِ

[٦٩]وَأَسْقَيْتَنِي مِنْ خَمْرِ حُبِّكَ شَرْبَةً ... خُمَارِي بِهَا بَاقٍ إلَى يَوْمِ بَعْثَتِي

[٧٠]مَحَانِي بِهَا سُكْرِي وأَثْبَتَنِي مَعاً ... فَأَعْجَبُ شيءٍ أنَّ مَاحِيَّ مُثْبِتِي

[٧١]وَأَقْرَيْتَنِي مِنْ رَمْزِ طِرْسِي[3] أَسْطُراً ... فَتَمَّت بِهَا تفصِيلُ عَقْدِكَ جُمْلَتِي

[٧٢]وَأَقْرَرْتَنِي مِنِّي عَلَيَّ بِأَنَّنِي ... صَحِيفَةُ سِرٍ طَيُّهَا فِيهِ نَشْرَتِي

---

(١) في المخطوط : عدم .

(٢) تيك : تا اسم يَشار به إلى المؤنث ، وعند المخاطبة يؤتى بالكاف ، فيقال : تيك .

(٣) الطرس الصحيفة ، يُقال هى التي مُحيت ثم كتُبت .

[٧٣]وَأَفْشَيْتَ بي سِـرِّي إليَّ فـأصْبَحْتُ ... وقَدْ أَعْرَبَت إذْ أفْصَحَت عنه عَجَمِيَّتي[1]

[٧٤]وَأَفْهَمْتَنِي مِنِّي بـأنْ لَيْسَ مَـوْطِني ... مكـاناً بِـهِ في عَـالَمِ الحِسِّ نَشْـأَتي

صفحة (١٤)

[٧٥]فَأَبْهَمْتَ مـا أَفْهَمْتَ إذْ لَيْسَ مُـدْرك ... لِـذَلِـك إلاَّ مَنْ خَصَصْتَ بحكمـةِ

[٧٦]وَمَنْ ذَا الَّذي خَصَصْتَ مِنْكَ بحكمةٍ ... ولم تَـكُ قَـدْ عَمَّمْتَ مِنْـكَ بـرحمَـةِ

[٧٧]فكم أَظْهَـرَتْ تِلْكَ الإشَارَاتُ خَـافياً ... وإنْ عَـزَبَتْ عَنْ فَهْمِ قَـوْمٍ وَدَقَّتِ

[٧٨]وَمَـا لاَحَ ذَاكَ البـرْقُ إلاَّ ليـهتـدي ... بِـهِ الرَّكْبُ لَكِنْ ظُلْمَـةَ الجَهْلِ أَعْمَتِ

[٧٩]لَقَدْ سَمِعَ الـوَاعي وَقُل الَّـذي وعَى ... لِسُكْرٍ به أَهْـوَى[2] أَصَمَّتِ فَاصْمُتِ

[٨٠]وَكَمْ لَـكَ دَاعٍ مِنْـكَ فيـكَ مُبَصِّرٌ ... لِعَقْلِكَ لكن لَسْتَ تُصْغي لَـدَعْـوَةِ

[٨١]وَكُـلُّ مَـرِيضِ الجسم يُمْكِنُ بُـرْؤُهُ ... وَيعْجَـزُ أنْ يَشفَى مَـريضُ البَـديهَـةِ

[٨٢]وَيَسْتَبْعِـدُ الجُهَّـالُ كَـوْنـاً بَمـوْطَنٍ ... إذاَ كـانَ لاَ في جَنْبِ مَنْبَتِ شُعْبَـةِ

[٨٣]وَلَـوْ عَلِمـوُا مَـا عـالَمُ العَقْـلِ مِنهُمُ ... وأَنَّهُمُ بـالحِسِّ في دَارِ غُـرْبَـةِ

[٨٤]إذَا وُلِـدَ المَـوْلُـودُ سُرُّوا بِفَـرْحَـةٍ ... وَمِنْ حَقِّـهِ أن يُبْدِلُـوهـا بِتَـرْحَةِ[3]

[٨٥]وَيَبْكُـونَـهُ عِنْـدَ المَمَـاتِ جَهَـالَـةً ... وَمِـنْ حَقِّـهِ إظْهَـارُ كُـلِّ مَسَـرَّةِ

صفحة (١٥)

[٨٦]وَلَمْ يَـعْـلَمـوُا أنَّ الـوِلاَدَةَ غُـرْبَـةٌ ... أُبِيحَت لَـهُ عَنْ خَيْرِ دارٍ وأسـرةِ[4]

[٨٧]وَمَـوْتَتُـهُ عَـوْدٌ لَـهُ نَحْـوَ أَهْـلِهِ ... وأَوْطَـانِـهِ الأصـليَّـةِ المُسْـتَـلَذَّةِ

[٨٨]وأَعْـجَبُ مِـنْ هَـذاَ مقَـالُ جَميعهم ... تَـرىَ عَـابِـدِي الأوثـان أَجْهَـل أمَّـةِ

[٨٩]وَمـاَ عَـظَّمَ الأَوْثَـانَ مَنْ كَـانَ قَبلَهُمُ ... كَتَعْـظِيـم أَجْسَـامٍ لهـم مُضْـمَحِلَّةِ

---

(١) العجم : خلاف العرب .

(٢) في المخطوط : أهوا .

(٣) التَرَح : ضدُّ الفرح .

(٤) في المخطوط : واسرت .

[٩٠]فَكُلٌّ غَدَا مَعْبُودَه الجِسْمُ فاسْتَوُوا ... ولكنَّهم لَمْ يَسْتَوُوا عِنْدَ نِيَّةِ

[٩١]فَقَدْ وَقَعُوا مع عِلْمِهِم في ضَلاَلَةٍ ... إذاَ اعْتَبرْت أربْت عَلَى كُلِّ ضَلَّةِ

[٩٢]فَيَالَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ صُمَّت عُقُولُهم ... وَداَعِيكَ فيهم مُسْمِع كُلَّ فِطْنَةِ

[٩٣]وَكُلُّ فِعَالٍ لَمْ أكُنْ مُتَقَرِّباً ... إلَيْكَ[1] بِه أَعْظَمْتَ فِيهِ خَطِيَّتِي

[٩٤]فَقُرْبِي بِهِ بُعْدٌ وَرِبْحي خَسَارَةٌ ... وَعِزِّي بِه ذُلٌّ وَنَفْعِي مَضَرَّتِي

[٩٥]لأنِّيَ فِيهِ قُمْتُ غَيْرَ مُوَجِّهٍ ... لَدىَ فِعْلِهِ وَجْهي إلى وَجْهِ وِجْهَتِي

[٩٦]فَدُنْتُ بِأمْرٍ حَرَّمَتْهُ شَرِيعَتِي ... وَأحْيَيْتُ حُكْماً قد أَماتَتْهُ سُنَّتِي

صفحة (١٦)

[٩٧]فَكَانَتْ بِتَرْكي في مَنَاهِيهِ غَفْلَتِي ... نِهَايَةُ تَأْدِيبِي وَفَرْطُ عقُوبَتِي

[٩٨]تَشَتَّتَ عَقْلِي فِيكَ بَعْدَ تَجَمُّعٍ ... كَماَ اجْتَمَعَتْ بَلْوَاىَ بَعْدَ تَشَتُّتِ

[٩٩]هَوَى فِيكَ لِي لاَ مُنْتَهَى لامتدادِهِ ... لَدَيَّ ولاَ منه خلاصٌ بِسَلْوةِ

[١٠٠]أَزِيدُ بَلاً إذْ يستجدُّ وَلَمْ يَكُنْ ... بتجديدِ صَبْرِي فِيه أَبْلَىَ بَلِيَّتِي

[١٠١]يُعِيدُ وَيُبْدِي أَوَّلاً مِنْهُ آخِرٌ ... فَقَدْ شَفَّ جِسْمِي سِرُّ عَوْدٍ وبَداةِ

[١٠٢]أَلاَ لاَ تَلُمْني إنْ شَطَحْتُ فإنَّهُ ... قَلِيلٌ لِسُكْرٍ حَلَّ بِي مِنْكَ شَطْحَتِي

[١٠٣]وَلاَ تَنْهَنِي إنْ تُهْتُ سُكْراً مُعَرْبِداً ... فأنْتَ الَّذِي اسْتَحْسَنْتُ فِيكَ هَتِيكَتِي

[١٠٤]وَلاَ تلحَ إنْ غَنَّيْتُ فيكَ تَطَرُّباً ... فَلَوْ وَجَدَتْ وَجْدِي الجِبَالُ لَغَنَّتِ[2]

[١٠٥]وَمِنْ عَجَبٍ حَمْلُ الجِبَالِ هَوَىً بِهِ ... طَلَعَتْ وعَنْ حَمْلِي قَدِيماً تأبَّتِ

[١٠٦]فَمِنْ قَيْسٍ لَيْلَىَ العامريَّةِ في الهَوَى ... وَمِنْ قَيْسٍ لبنىَ أو كثيرٍ عَزَّةِ

[١٠٧]إذاَ تُلِيَتْ أيَاتُ ذِكْرِي فَقَابَلَ الـ ... مجُنُونُ ذِكْرِي بالسُّجُودِ لحُرْمَتِي

صفحة (١٧)

[١٠٨]وَأَوْجَبَ كُلٌّ مِنْهُم الوَقْفَ عِنْدَهَا ... وسَلَّم أنْ لا قِصَّةَ مِثْلَ قِصَّتِي

---

(١) في المخطوط : إلى .

(٢) في المخطوط : لغنتي .

[١٠٩]فَمِنْ فَضْلِ كَاسِي شَرِبَ غَيْرِيَ وَلَمْ يَكُنْ ... يُقَاسُ بِسُكْرِي سُكْرُ شَارِبِ فَضْلَتِي

[١١٠]يُبَلْبِلُ بَالِي لَا لِنَوْحِ حَمَامَةٍ ... وَيُنْهِلُ دَمْعِي لَا لِإِيمَاضِ بَرْقَةِ

[١١١]ولو كُنْتُ مُحْتَاجاً لتتميم بَاعِثٍ ... يُحَرِّكُ أَشْجَانِي لَبَانَتْ نَقِيصَتِي

[١١٢]وَلَكِنَّنِي مِنِّي وَفِيَّ نَوَاعِشُ[1] ... تُحَرِّكُنِي فِي كُلِّ سِرٍّ وَجَهْرَةِ

[١١٣]فَلَا رَقْدَةٌ تَغْدُو عَلَيَّ بِفَتْرَةٍ ... وَلَا يَقْظَةٌ تَغْدُو عَلَيَّ بِغَفْلَةِ

[١١٤]فَمَنْ يَشْكُ يَوْماً فِي هَوَاهُ فَإِنَّنِي ... لِي الشُّكْرُ أَوْلَى فِي الْهَوَى مِنْ شَكِيَّتِي

[١١٥]تَسَتَّرْتُ جَهْدِي فِي هَوَاكَ وَطَاقَتِي ... فَلَمَّا مُنِعْتُ الصَّبْرَ أَبْدَيْتُ صَفْحَتِي

[١١٦]فَأَعْلَنْتُ مَا أَسْرَرْتُ فِيكَ فَلَمْ يَكُنْ ... بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ سِوَاكَ فَضِيحَتِي

[١١٧]فَمَا لِاشْتِيَاقِي فِي افْتِضَاحِي مَدْخَلٌ ... وَلَا لِدُمُوعٍ فِيكَ لِي مُسْتَهِلَّةِ

[١١٨]وَقَدْ كَانَ لِي فِي الصَّبْرِ سِتْرٌ عَلَى الْهَوَى ... بِهَتْكِكَ سِتْرَ الصَّبْرِ أَظْهَرْتَ عَوْرَتِي

صفحة (١٨)

[١١٩]فَلَا مَذْهَبٌ فِي الْحُبِّ يُشْبِهُ مَذْهَبِي ... وَلَا مِلَّةٌ فِيهِ تُقَاسُ بِمِلَّتِي

[١٢٠]يَكِلُّ لِسَانِي عَنْ صِفَاتِي وَإِنَّمَا ... يُعَبِّرُ عَنِّي أَنَّنِي ذَاتُ وَحْدَةِ

[١٢١]فَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ وَصْلِي شَقْوَةٌ ... وَكُلُّ مَلَذٍّ مُولَمٌ عِنْدَ لَذَّتِي

[١٢٢]وَكُلُّ سَبِيلٍ لَيْسَ يُفْضِي سُلُوكُهُ ... إِلَيَّ فَقَدْ أَفْضَى إِلَى كُلِّ خَيْبَةِ

[١٢٣]وَلَوْلَا هَوىً لِي فِيكَ يَحْمِلُنِي عَلَى ... حُنُوِّي لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكَ بِلَفْظَةِ

[١٢٤]وَكُنْتُ إِذَا زَلَّتْ بِكَ النَّعْلُ هَاوِياً ... أَقُولُ أَلَا فَاذْهَبْ إِلَى حَيْثُ أَلْقَتِ

[١٢٥]وَلَكِنْ مَا يُنْجِيكَ يُنْجِي هَوِيَّتِي ... كَمَا أَنَّ مَا يُؤْذِيكَ نَفْسُ أَذِيَّتِي

[١٢٦]وَهَلْ أَنَا إِلَّا أَنْتَ ذَاتاً ووحدةً ... وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَفْسُ عَيْنِ هَوِيَّتِي

[١٢٧]وَلَوْلَا اعتبارُ الجِسْمِ بِالنِّسْبَةِ الَّتِي ... إِلَيْهِ لَهُ مَا صَحَّ عَنِّي سِيرَتِي

[١٢٨]وَلَسْتُ بِذِي شَكْلٍ فَيُوجِبُ كَثْرَةً ... لِذَاتِي وَلَا جُزْءاً فَتَمْكُنَ قِسْمَتِي

[١٢٩]وَيُوقِعُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ نِسْبَةٌ ... يَظُنُّ بِهَا غَيْرِي لِمَوْضِعِ شُبْهَةِ

---

(١) نعشه الله ، أي رفعه .

صفحة (١٩)

[١٣٠]وإنِّي لَمْ أَهْبِطْ إلىَ الأَرْضِ يُبْتَغَى ... بذلك وضعي بل هُبُوطي [و] رفْعَتي

[١٣١]وَتَقْرِيرُ هَذَا أَنْ دُعيتُ خَلِيفَةً ... وَمَا كُنْتُ أُدْعَى قَبْلَ ذاَ بِخَلِيفَةِ

[١٣٢]وَصَيَّرَ مُلكي عَالَمَ الجِسْمِ مِحنَةً ... لِغَايَةِ تَدْبِيري ومَبْلَغِ حِكْمَتي

[١٣٣]فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ الوِلاَيَةَ أَحْسَنت ... إلى العَالَمِ العُلْوِي عَوْدي وَعُزْلَتي

[١٣٤]وَعَايَنْتُ مَا لاَ عَايَنَتْ مُقْلَةٌ وَلاَ ... أَحَاطَتْ بِهِ أُذُنٌ وَعَتْ حِسَّ سَمْعَةِ

[١٣٥]وآثَرَتْ لَذَّاتي وَنَيْلَ مآربي ... واتَّبَعَتْ نَفْسي كُلَّ شَيْءٍ أَحَبَّتِ

[١٣٦]سَدَّدَتْ عَلَيَّ نَفْسي سبيلَ تَخَلُّصي ... إلى المَلأِ الأَعْلَى الَّذي هُو نُزْهَتي

[١٣٧]وَأَوْقَعتها في أَسْرِ مَنْ لاَ يَرَى لَهَا ... مَكَاناً وَلاَ يَحْنُو عليها بِعَطْفَةِ

[١٣٨]فَلاَ نَدَمَ يَجْزي وَلاَ حَسْرَةَ يُرَى ... بِهَا فَرَجٌ يُرْجَى[1] لِكَشْفِ لشدَّةِ

[١٣٩]فَيَا وَيْحَ نَفْس آثَرَت طِيبَ زَائَل ... عَلَى طَيِّبٍ باقٍ لاَ يُحَدُّ بِمُدَّةِ

[١٤٠]يَمُوتُ الفَتَى بالجَهْلِ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ ... وَيَحْيَى بِرُوحِ العِلْمِ مِن بَعْدِ مَيْتَةِ

صفحة (٢٠)

[١٤١]فَمَا مَاتَ حَيُّ العِلْمِ يَوْماً وَلَمْ يَكُن ... بِحَيٍّ مَمَاتُ الجَهْلِ مَقْدَارَ لَحْظَةِ

[١٤٢]وَانْظُر أَحْوالَ الرِّجَالِ وُقُوفَهم ... عَلَى بَرْزَخٍ مَا بَيْنَ نَارٍ وَجَنَّةِ

[١٤٣]فَإِمَّا إلى آلاَمِ نَفْسٍ خَبِيثَةٍ ... وإِمَّا إلىَ لَذَّاتِ نَفْسٍ نَفِيسَةِ

[١٤٤]فَآلاَمُ تِلْكَ التَّرْكُ في دَارِ غُرْبَةٍ ... وَلَذَّاتُ هَذِي العَوْدُ مِنْ بَعْدِ غُرْبَةِ

[١٤٥]وهَلْ حَسْرَةٌ في النَّفْسِ أعظَمَ غُصَّةً ... مِنَ البُعْدِ عَنْ أَهْلٍ وَدَارٍ وَجِيرَةِ

[١٤٦]كَمَا أَنَّه لاَ شَيْءَ أَعْظَم لَذَّةً ... لِذِي غُرْبَةٍ مِنْ مُلْتَقَى بَعْدَ فُرقَةِ

[١٤٧]كَأَنِّي لَمْ أُحْجَبْ بِهَا وَكَأَنَّهَا ... هِي احْتَجَبَتْ بي فازْدَهَى النَّاسُ عِشْقَتي

[١٤٨]وَغُودِرْتُ لاَ يُثْنَى عَلَى حُسْنِ فِعْلِي الـ ... جَمِيلِ وَلاَ يُلْوَى عَلَى حُسْنِ طَلْعَتي

[١٤٩]وَلَوْ قَايَسُوا بِالحُسْنِ بَيْني وَبَيْنَهَا ... لَكَانَتْ لَدَيْهِم لاَتُسَامُ بِحَبَّةِ

---

(١) فى المخطوط : يرجا .

[١٥٠]وَشقوُا القُلوُبَ الجَاهِلاَتِ الَّتي بِهاَ مَحَبَّتُهـا قـالـت بِهِمْ عَنْ مَحَبَّتي
[١٥١]وَمـاَ ذَاكَ يُسْقِطُ العُـذْرَ لِامْـرِىءٍ أَطَاَعَ الهَوىَ وانْقـاَدَ عَبْداً لَشَهْـوَةِ

صفحة (٢١)

[١٥٢]وَهَـلْ نَـافـعٌ شَقُّ الفُؤَادِ نَـدَامَـةً لِـذِي قَـدمٍ زَلَّـتْ وَلَمْ تَتَثَبَّـتِ
[١٥٣]فكَيْفَ يَليقُ الـوَصْـلُ مِنِّي لِمُؤْثِـرٍ عَلَىَ طِيبِ وَصْلي وصْل من هى عبدتي
[١٥٤]إِذاَ رَضَيتْ عَنْـهُ يهَـوُنُ عَليـهِ فِي رِضَاهاَ وأَدْنَى ذَاكَ تَسْهيلَ غُصَّتي[1]
[١٥٥]عَـلَى أَنَّها أَعْـدَى[2] عِـدَاهِ تَـرَتَّبت لَـهُ حِيلَةٌ مِنْهـاَ لإِمْكَـانِ فُـرْضَـةِ
[١٥٦]فَـهـاَمَ بِهـاَ عِشْقـاً وآثَـرَ وَصْلَهـاَ فَـزَلَّ فـنـادتـه إلى أَلْـفِ لَـعْـنَـةِ
[١٥٧]وَلَـوْلاَ الشَّقَا والجَهْـلُ مَـا آثَـر العِـدَى رِضَـاهَا وَجَـانَبَ طيبَ وَصْلِ الأحبَّـةِ
[١٥٨]وَهَـلْ أَمَّني بـالفَضْـلِ مِثْـلي وإِنَّمـاَ تَمْثُـلُ طِبَـاعُ السُّـوءِ نَحْـوَ الـدَّنيَّـةِ
[١٥٩]وَتـأْبَىَ الطِّبَـاعُ الفَـاضِـلاَتُ ارتكـابَهـا الأُمـوُر الَّـتي تُـفْضي إلى حَطِّ رُتْبَـةِ
[١٦٠]فَكَمْ حَسرَاتٍ فِي نُـفُـوسٍ يُثـيرُهـاَ بُعـاَدِي إِذَا مَـا العِيسُ للبَيْنِ زَمَّتِ[3]
[١٦١]وَكَـمْ عِبْـرَةٍ تَجْـري عَـلَىَّ تـأَسُّـفـاً وَقَـدْ فـاَتَ مَـا لاَ يُسْتَـرَدُّ بِـعِبْـرةِ
[١٦٢]وَكَـمْ قَـارعٍ سِنَّـاً عَـلَى نَـدَامَـةٍ وآخَـر مـكـويٌّ بـنـيرانِ حَـسْـرَةِ

صفحة (٢٢)

[١٦٣]وَكَـمْ أَنَّـةٍ تـغْـدُو عَـلَيَّ وَرَنَّـةٍ تَـروُحُ إِذاَ مَـا اسْتَشْعَـرَ القـومُ فُـرْقَتي
[١٦٤]وَهَـلْ هَـاجِـري وَجْـداً بِغَيْـري بَـالِـغٌ رِضَـاي لصب[4] طَـالِبِ دَارِ هِجْـرَةِ
[١٦٥]لَـشَتَّـانَ مَـاَ بَـيْنَ المَقـاَمَـيْنَ إِنَّمـاَ المُـبَـرِّزُ مِـنْ لاَ هَمَّـهُ غَـيْرِ عِشْرَتي
[١٦٦]أَلَمْ تـرَاَني مُنْتَـهَى قَـصْـدِ مُبْـدِعي وَلَمْ تُـبْـدَعِ الأَشْـيَـاءُ إِلاَّ لِخِـدْمَـتي

---

(١) الشطر الثاني مُصَحَّح في هامش المخطوط .
(٢) في المخطوط : أعدا .
(٣) زمَّ : تَقَدَّم في السير .
(٤) هكذا في المخطوط .

[١٦٧]وَإِنَّ لإِكْـرَامِي وَتَعْـظِيم حُـرْمَتِي ... أَشَـارَ إلى الأَمْـلاَكِ نَحْـوِي بِسَجْدَةِ

[١٦٨]وَصَـيَّرَ مـاَ فِي عَـالَمِ الكَـوْنِ كُـلَّهُ ... بِـحُكْـمِ إرَادَتِي وَطَـوْعِ مَـشِـيَّتِي

[١٦٩]فَـإِن كُنْتَ فِي وَصْلٍ دُعيتَ فَـلاَ تَمِـلْ ... إلى وَصْلِ غَيْرِي واغْتَنِم وَصْلَ صُحْبَتِي

[١٧٠]وَخُـذْ جَانِبـاً مِنْ رِفْقَةٍ بِـكَ وكِّلوُا ... بِبُعْـدِكَ عَنْ وَصْلِي وإثبـاتِ جَفْـوَتِي

[١٧١]فَعِنْـدَ ارتفاعِ الحُجْبِ مَـا بَيْنَنَـا تَـرى ... مَحـاسِنَ وَجْـهِ الغَـانِيـاَتِ وبَهْجَتِي

[١٧٢]وَلاَ عُـجِنَـتْ إلاَّ بِـحُبِّـكَ طِـينَتِي ... وَلاَ لَهَـجَتْ إلاَّ بـذِكْـرِكَ لَهْـجَتِي

[١٧٣]وَرَدَتْ وُرُودَ الهِيمِ فِيـكَ مِنَ الهَـوَى ... شَرِيعَـةَ حُـبٍّ هَـيَّجَـتْ لِي غُـلَّتِي

صفحة (٢٣)

[١٧٤]وَلاَ عَـجَـب إنْ هَـيَّجْـتَ لِي غُـلَّةً ... فَـمَاَ تِلْكَ عِنْـدِي مِنْـكَ أَوَّلُ مِحْنَـةِ

[١٧٥]إذَا كَـانَ بِي أَمْـرٌ أَدَّى فِيـه لِيَ أذىً ... رِضـاَكَ فَـمَاَ أَحْـلاَهُ فِي قَـلْبِ ذِلَّتِي

[١٧٦]لِـذَلِـك مَـاَ أَرْضـاَكَ مِنِّي فَعَلْتُـهُ ... وَلَـوْ غَضِبَتْ مِنْـهُ كِـرَامُ عَـشِـيرَتِي

[١٧٧]وَمـاَ بِعْتُ فِيكَ النَّفْسَ إلاَّ لَعَـلَّ أن ... أفـوزَ بِـوَصْـلٍ مِنْكَ تُـرْبِحُ صَفْقَتِي

[١٧٨]فَـإِنْ أَنْتَ أَمْضَيْتَ التَّبَـايُـعَ بَيْنَنَـا ... فَبِعْتَ وإن لَمْ تَمْضِ أَكْسَـدْتَ سِلْعَتِي

[١٧٩]وَمَـا قَـدْرُ نَفْسٍ لِي لَـدَيْكَ حقيـرةٍ ... فَـأَجْعَلُهـاَ قَـهْـراً لِأَشْـرَفِ وَصْلَةِ

[١٨٠]ولـكن مُـقِـلٌّ بَـاذِلٌ فِيـكَ جُـهْـدَهُ ... أحقُّ بِـوَصْـلٍ مِنْ أَخي كُـلِّ ثَـرْوَةِ

[١٨١]تَـوَحَّشْتُ مِنْ أَبْنَاءِ نَـوْعِي وَلم يَكُنْ ... لشيّ سِـوَى أُنْسِي بِقُـرْبِـكَ وَحْشَتِي

[١٨٢]تَـغَـرَّبْتُ عَـنْ أَهـلِي إلَيْـكَ وإنَّني ... لَيَعْـذُبُ لِي فِي طِيبِ أُنْسِكَ غُـرْبَتِي

[١٨٣]فَكَمْ خَلْوَةٍ قَـدْ فـزْتُ فِيهـاَ بِجَلْوَةٍ ... خَـرجتُ بِهـا عَنِّي إلَيْـكَ بِفَـرْحَـةِ

[١٨٤]وَطَـلَّقْتُ فيهـا عَـالَمَ الحسِّ بَتَّـةً ... لِـتَـعْـلَمَ أَنِّ لاَ أَقُـولُ بِـرَجْـعَـةِ

صفحة (٢٤)

[١٨٥]وَفَـارَقْتُ أَوطَـانِي وَأَهْـلِي وجِـيرَتِي ... لِـتَـعْـلَمَ أَنِّي بَـاذِلٌ فِيـكَ مُـهْـجَتِي

[١٨٦]وَلَـوْلاَ دخُـولِي فِي رِضـاَكَ بِكُـلِّ مـاَ ... اسْـتَـطَعْتُ لَعَـزَّتْ فِيكَ عَنِّي خَـرْجَتِي

[١٨٧]وَكَـانَ بَـودِّي لَـو قَـبِلْتَ تَـقَـرُّبِي ... إلَيْـكَ ولكنْ لَسْتُ أَهْـلاً لقُـرْبَـةِ

[١٨٨]وَهَـلْ أَنَـا إلاَّ نُـطْفَـةٌ مِنْ سُـلاَلَـةِ ... لـطينٍ وَمـاَ مِقْـدَارُ قِيمَـةِ نُـطْفَـةِ

[١٨٩]لَعَمْري لَقَدْ حَاوَلْتُ أَمْراً مَرامُهُ عَزِيزٌ ولكنْ أنْتَ أَهْلُ العطيَّةِ
[١٩٠]وَلَيْسَ اعتِرَافِي باتِّضاعِي بِمَا نعِي سُؤَالَكَ أَمْرًا دُونَه قَدْرُ قِيمَتِي
[١٩١]وَلَيْسَ عَلَى قَدْرِي سُؤَالِي فإنَّني أَرَى أَنَّ قَدْرِي دُونَ مِقْدارَ ذَرَّةِ
[١٩٢]وَلكنْ عَلَى قَدْرِ إحْسَانِكَ الَّذي عَمَمْتَ بِهِ تَخْصِيصَ كَوْنِي بِخِلْقَتِي
[١٩٣]وَمَا أَنَا مِمَّنْ يُوهِنُ الردُّ عَزْمَهُ فَيَيْأَسَ حتَّى لَا يلم بِعَوْدَةِ
[١٩٤]وَلَا أَنَا مِمَّن يُخْجِلُ الطَّرْدُ وَجْهَهُ فَيَأْنَف مِنْ عَوْدٍ مَخَافَةَ طَرْدَةِ
[١٩٥]عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ لِي عَنْكَ مَذْهَبٌ فَيَصرِفُنِي عَنْ جَعْلِ بَابِكَ قِبْلَتِي

صفحة (٢٥)

[١٩٦]فَمَا شِئتَ فاصْنَعْ وَارْضَ عَنِّي فإنَّني أَرَى كُلَّ صُنْعٍ مِنْكَ إسْبَاغُ نِعْمَةِ[1]
[١٩٧]كَفَاني اعْتِرَافِي بَاقترافي تَوْبَةً وَحَسْبِي رِضاً عَنِّي قَبُولُكَ تَوْبَتِي
[١٩٨]وَهَلْ أَنَا إلَّا دَوْحَةٌ قد غَرَسْتَها فإن لم يُصِبْها وَابِلٌ مِنْكَ جَفَّتِ
[١٩٩]إذَا حَصَلَتْ لي كَيْفَ ما كانَ نِسْبَةٌ إلَيْكَ فَلَا أَخْشَى ضَيَاعاً لِنِسْبَتِي
[٢٠٠]فَيَا حَيْرَتِي كَمْ حِيرةٍ فِيكَ لِي غَدَتْ مُخَصَّصَةً بِي مَا بِهِ مِنْكَ عَمَّتِ
[٢٠١]وَكَمْ نِعْمَةٍ أَسْبَغْتَ مِنْ سِرِّ حِكْمَةٍ أَنَرْتَ[2] بها مِن ناطقٍ كُلَّ ظُلْمَتِي
[٢٠٢]وَأَحْيَيْتَ مِنِّي مَا أماتَتْ جَهَالَتِي حَيَاةً مُحَالٌ أَنْ تُحَالَ بِمَوْتَتِي
[٢٠٣]وَمَنْ حَيِيَتْ مِنْ مَوْتَةِ الجَهْلِ نَفْسُهُ بِعِلْمٍ نَجَتْ مِنْ قَطْعِ كُلِّ مَنِيَّةِ
[٢٠٤]وكَمْ موْجَةٍ مِنْ بَحْرِ عِلْمٍ أَثَرْتَهَا لَدَىَّ بِرِيحٍ مِنْكَ أَجْرَتْ سَفِينَتِي
[٢٠٥]فَمَرَّتْ تَشُقُّ الكَوْنَ حِينَ مَهَبُّهَا ملججة حتىً أَفَادَتْ مَعِيَّتِي
[٢٠٦]وَأَدركْتُ مَعْنىً آخراً (دَقَّ فَهْمُه)[3] أُرِيدَ بِوَضْعِ الصُّورَةِ الألفيَّةِ

صفحة (٢٦)

[٢٠٧]وَمَنْ لَمْ يُحِطْ عِلْماً بِمَعْنىً وَصُورةٍ لَهُ فَبَصِيرُ العَيْنِ أعْمَى البَصِيرَةِ

---

(١) في المخطوط : نغمة .
(٢) مُصحَّحة في هامش المخطوط .
(٣) مُصحَّحة في أسفل الصفحة ، وأصل المكتوب : « وهو الذي » .

[٢٠٨]فَـزَرْعٌ ولكن لَمْ يُفِـدْ حَصْـدُ حَبِّـهِ ... ومخضٌ ولـكن لَمْ يُـفِـدْ مَخْضُ زُبْـدَةِ

[٢٠٩]إذَا جَـهِـلَ الإنْسـانُ تَحْقِيقَ أَمْـرِهِ ... فكيفَ بتحقيقِ الأمـورِ الغَـريبَـةِ

[٢١٠]فيَـا عَجَبـاً للمَـرْءِ يَجْـهَـلُ نَفْسَـهُ ... وَيَـطْمَـعُ في فَهْمِ المَعَـاني البَـعِيـدَةِ

[٢١١]وَمـاَ نَـاهِضٌ بـالنَّفْسِ يـزْدَادُ رُتْبَـةً ... مِنَ العِلْمِ تسمِّيهـا كـوانَ مفـوت

[٢١٢]وَمـاَ مُـوقظٌ مِنْ رَقْـدَةِ الجَهْـلِ عَقْلَهُ ... لِـتَحْـصِيلِهِ تَكْـمِيلَهـا مِثْـلَ مَيِّـتِ

[٢١٣]إذا كُـمُلَتْ نَـفْسُ الفَـتَى بِـصِفَـاتِـهِ ... الجميلةِ مِنْ قَـوْلٍ وفِـعْـلٍ تَـرَقَّتِ

[٢١٤]وَأصْبَحَ يُدْعَى[1] عَـالِمُ العَقْلِ عَـالِماً ... لَهـاَ وَتَخَـطَّت نَـفْسُـهُ كُـلَّ خِـطَّةِ

[٢١٥]وَبِـالعِلْمِ بـالنَّفْسِ النَّفِيسَـةِ يُـدْرِكُ الـ ... ـمُـحَـصِّـلُ فَـهْـمَ الـعِـلَّةِ الأَوَّلِـيَّـةِ

[٢١٦]وَمَـنْ لَمْ يُحِطْ عِـلْماً بِـذَاكَ فَـإنَّـهُ ... وَإنْ كَـانَ حَيًّـا حُكْمُـهُ حُكْمُ مَيِّتِ

[٢١٧]وَمَا الحيُّ عِنْدَ العَقْـلِ مَنْ كَانَ غَـالِباً ... عَـلَى نَفْسِـهِ حُكْمُ القُـوَى البـدنيَّـةِ

صفحة (٢٧)

[٢١٨]ولـكنَّـهُ مَـنْ شَـرَّفَتْ قَـدْرَهُ عَـلَى ... بَنِي نَـوْعِـه أَوْصـافُ نَفْسٍ زَكِـيَّـةِ

[٢١٩]فَـفِي الـعَـالَمِ الـعُـلْوِي ذَا مَـلَكٌ وذَاَ ... لَـدَى العَـالَمِ السُّفْـلِي شَيْطَانُ جِنَّـةِ

[٢٢٠]وَمـاَ اخْتَلَفـاَ بـالنَّـوعِ حَتَّى يُـظَنَّ مـاَ ... بِـهِ اخْتَلَفـاَ فِعْـلاً لِخَلْقِ الغَـرِيـزةِ

[٢٢١]وَكُـلٌّ أبـوُه آدَمٌ وَيَخُصُّ ذاَ ... لِـذا[2] خصَّ ذاَ مِنْ سِرِّ معنىَ النبوَّةِ

[٢٢٢]وَمِنْ أَعْجَبِ الأشْيـاءِ فَـرْعـاَ أَرُومَـةٍ ... وَمـاَ اتحدا[3] بـالطَّبعِ في الثَّمرِيـةِ

[٢٢٣]بـأيِّ لِسَـانٍ أُوثِـرُ[4] الشكْـرَ مُثْنِيـاً ... عَـلَيْـكَ بِمـاَ أَوْلَيْـتَـنِي مِـنْ فَـضِـيلَةِ

[٢٢٤]وأكْمَلْتَ من عَقْـلِي وَوَصْفِي وصُورَتِي ... وَفَـهْـمِي وأحْشَـايَ وَحَـوْلِي وَقُـوَّتِي

[٢٢٥]وَصَفْحِـكَ عَنِّي إنْ عَصَيْتُ تكـرُّمـاً ... وَوَعْـدِكَ لِي عَنْ طـاَعَتِي بـالمُثُـوبَـةِ

[٢٢٦]وَهَـلْ مُـمْـكِـنٌ إحْـصـاَ ذَرَّاتٍ كُـلَّمَاَ ... عَـلَى الأَرْضِ مِنْ كُثْبـاَنِ رَمْـلٍ مَهِيلَةِ

[٢٢٧]وإحْصَـا مَاَ في البَحْـرِ مِنْ كـلِّ قَـطْرةٍ ... بِحَيْثُ يُحِيطُ المُحْصِي[5] مِنْهـا بِعِـدَّةِ

---

(١) في المخطوط : يدعا .
(٢) في المخطوط : لذى .
(٣) في المخطوط : اتخذا .
(٤) في المخطوط : اثر .
(٥) مُبيَّنة في هامش المخطوط .

[٢٢٨]وَذَلِكَ أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ وَكُلَّما اسْـ ـتَحالَ فَمَنْفِيٌّ لحِكْمِ الضَّرُورَةِ

صفحة (٢٨)

[٢٢٩]وَمَا كُلُّ هَذَا لَوْ أَتَيْتُ بِضِعْفِهِ من الشُّكْرِ أَدْنَى شكْرِ أصغَر حبَّةِ

[٢٣٠]فكيْفَ بِشُكْرِي كُلّ عُضْوٍ وقوَّةٍ جُعِلَتْ لِنَفْعِي عِنْدَ تَالِيفِ بِنْيَتِي

[٢٣١]وشكر الَّتِي قَدْ حُجِبَتْ بِي وانَّها لأَظْهَرُ لِي مِنْ نُورِ شَمْسٍ تَبَدَّتِ

[٢٣٢]بَعِيدَةٌ أَطْلَالُ الدِّيارِ قَرِيبَةٌ وَأَعْجَبُ شَيء بُعْدُ دَارٍ قَرِيبَةِ

[٢٣٣]بِهَا مِثْلُ مَا بِي مِنْ هَوَاهَا وعِنْدَهَا مِنَ الوِدِّ لِي مَا لَيْسَ دُونَ مَوَدَّتِي

[٢٣٤]وَقَدْ أدركتْها رقةٌ لي أطْمَعَتْ بِنَيْلِ المُنَى لَوْلَا مَخَافَةُ رِقْتِي

[٢٣٥]وَقُلْتُ لَهَا مُنِّي عَلَيَّ بِنَظْرَةٍ أنالُ بها مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مُنْيَتِي

[٢٣٦]أَلَمْ تعلمي مَا حَلَّ بِي مِنْكِ مِنْ جَوىً وَكَابَدْتُ مِنْ أَشْجَانِ قَلْبٍ وَلَوْعَةِ

[٢٣٧]فَإِنَّ الجبَالَ الشُّمَّ وهيَ رَوَاسِخٌ لَوِ احْتَمَلَتْ بَعْضَ الَّذِي بِي لَدُكَّتِ

[٢٣٨]فَأَحْزَانُ قَلْبِي لَا تَجُودُ بِسَلْوَةٍ وَأَجْفَانُ عَيْنِي لَا تَسْمَحُ بِدَمْعَةِ

[٢٣٩]وَلَوْلَا حَنِينِي لَمْ تَحُنَّ مَطِيَّةٌ وَلَوْلَا نُوَاحِي لَمْ تَنُحْ وُرْقُ أَيْكَةِ[1]

صفحة (٢٩)

[٢٤٠]وَلَوْلَا خِطَابِي لَمْ تَقَعْ عَيْنُ عَابِدٍ عَلَيَّ لِمَا مِنِّي الصَّبَابَةُ أَبْلَتِ

[٢٤١]فَلَا مَاءَ إِلَّا بَعْضُ فَيْضِ[2] مَدَامِعِي وَلَا نَارَ إِلَّا دُونَ أَنْفَاسِ زَفْرَتِي

[٢٤٢]فَقَالَتْ بِعَيْنِي مَا لَقِيتَ وإِنَّهُ لَيَؤُلِمُ قَلْبِي أَنْ يُشَاكَ بِشَوْكَةِ

[٢٤٣]وَإِنِّي عَلَى مَا فِيَّ مِنْ صَلَفِ البهَا لَراغِبَةٌ فِي الوَصْلِ أَعْظَمَ رَغْبَةِ

[٢٤٤]وَلكنَّ وُشَاةَ السُّوءِ فِيكِ كَثِيرَةٌ وَلَيْسَتْ مَعَ الوَاشِينَ تمكُن رَوِيَّتِي

[٢٤٥]وَأَنْتِ فَمُغْرَىً بِالحِسَانِ وإِنَّنِي لأَكْرَهُ مَا بِي أَنْ أَرَى وَجْهَ ضُرَّتِي

[٢٤٦] وَمَنْ مِينِه فِي مين وَجْهِي بِبُرْقُعٍ وَصَوَّرَ فِيهِ صُورَةً دُونَ صُورَتِي

---

(١) الأيك : الشجر الكثيف الملتف .

(٢) كلمةٌ مضافة فوق السطر ، ولعلَّ النَاسخ قد استدركها .

[٢٤٧]لِيَمْتَحِنَ الخُطَّابُ لي إذْ يَرَوْنَهَا ... أَيَلْهونَ عَنِّي أم يُتِمُّون خِطْبَتي

[٢٤٨]وَمَا هِيَ إلَّا عَبْدَةٌ لي جَمِيلَةٌ ... تظن وما أفعالُهَا بِجَمِيلَةِ

[٢٤٩]فَمَا كَانَ إلَّا أنْ رأى النَّاسُ وَجْهَهَا ... فَهَامُوا بِهَا في فَجِّ وَجْهٍ وَوِجْهَةِ

صفحة (٣٠)[1]

[٢٥٠]وَيَعْلَمُ مَا قَدْ كَانَ بالأَمْسِ والَّذي ... يكُونُ غَداً أَوْ كَائِنٌ بَعْدَ بُرْهَةِ

[٢٥١]وَيُخْبِرُ بالأَمْرِ المُغَيَّبِ مثْلَ مَا ... يُخْبِرُ عَنْ مَا كَانَ مِنْكَ بِحَضْرَةِ

[٢٥٢]وَيَعْلَمُ مَا مَفْهُومُ مَعْنَى مُعَبِّرٍ ... لِسَامِعِهِ عَنْهُ بِوَحْيِ النُّبوَّةِ

[٢٥٣]وَمَا الوَحْيُ إلَّا خَلْعُ نَفْسٍ قَوِيَّةٍ ... مَلَابِسَ إحْسَاسٍ عَلَى العَقْلِ غَطَّتِ

[٢٥٤]وَأَنَّى لَهَا نَحْوَ المُحِيطِ بِذَاتِهَا ... عَلَى عَالَمِ العَقْلِ الَّذِي عَنْهُ شَبَّتِ

[٢٥٥]وَإدْرَاكُ مَا يُلْقَى إلَيْهَا هُنَاكَ مِنْ ... إشَارَاتِ رمزٍ لِلعُقُولِ دَقِيقَةِ

[٢٥٦]وَإفْهَامُ أَفْهَامِ النفوسِ لَطَايِفَ الـ ... ـمَعَانِي الَّتِي في ذَاتِهَا قَدْ تَهَيَّتِ

[٢٥٧]وَمَا أَطْرَبَ الأَرْوَاحَ مِنَّا لَدَى الفَنَا ... سِوَى نَغَمَاتٍ أدركتْهَا قَدِيمَةِ

[٢٥٨]وَذَلِكَ أنَّ النَّفْسَ قَبْلَ اتصالها ... بتدبيرها الجسمَ الَّذي قَدْ تَولَّتِ

[٢٥٩]وَعَى سَمْعُهَا مِنْ طِيبِ أَلْحَانِ نَغْمَةٍ ... يَنْغَمُهَا الأَفْلَاكُ أَعْظَمَ لَذَّةِ

[٢٦٠]إذَا أَقْبَلَتْ أَجْرَامُهَا بِاصْطِكَاكِهَا ... يُرْجِعُهَا في قَطْعِهَا كُلَّ ذِرْوَةِ

صفحة (٣١)

[٢٦١]وَشَذَّت لِبُعْدِ العَهْدِ عَنْهَا فَلَمْ تكُنْ ... تَذكُرُهَا إلَّا بتجديدِ نَغمَةِ

[٢٦٢]فَلَمَّا أَحَسَّتْ بالسَّمَاعِ بِمِثْلِهَا ... تَذَكَّرَتِ العَهْدَ القَدِيمَ فَحَنَّتِ

[٢٦٣]وَحَاوَلَتْ التَّجْرِيدَ عَنْ عَالَمِ الفَنَا ... إلَى العَالَمِ البَاقِي الَّذي عَنْه شَذَّتِ

[٢٦٤]فَجَاذَبَهَا الجِسْمُ الزِّمَامَ وَأَقْبَلَتْ ... تُجَاذِبُ فَاهْتَزَّتْ لِذَاكَ بِرَقْصَةِ

[٢٦٥]وَلَا شَكَّ في أَنَّ العُقُولَ مُخِيلَةُ الـ ... ـمَسَامِعِ والأَبْصَارِ لِلحِسِّ رَنَّتِ

[٢٦٦]فَإن لَمْ يكُنْ في عَالَمِ العَقْلِ مَا يُرَى ... وَيُسْمَعُ كَانَتْ تِلْكَ غَيْرَ مُفِيدَةِ

---

(١) في آخر هذه الصفحة بيت مشطوب .

[٢٦٧]وَذَلِـك تَـعْـطِيـلٌ وَلَيْسَ بِـحِكْـمَـةٍ يُـعَـطِّلُهـا عـماً لَـه قَـدْ أُعِـدَّتِ
[٢٦٨]وَقَـدْ يَـطْرَبُ الـدُّولاَبُ عِنْـدَ حَنِينِـه فـكَيْـفَ حَنِـينُ الـنَّغَـمَـةِ الفـلكيَّـةِ
[٢٦٩]وَنـاَهِيـكَ أنَّ الـطفـلَ عِنْـدَ بُكَـائِـهِ يُـغَنِّي فَـيَغْشَـاهُ سَكِـيـنَـةُ سَكْـتَـةِ
[٢٧٠]ويـذهـل عَـمَّا كَـانَ فيـه مِنَ الأَذَى وَتَبْـدوُ لَنـاَ مِنْـهُ مَخـاَيِـلُ طَـرْبَـةِ
[٢٧١]وَلَوْلاَ ادّكَارُ النَّفْسِ مِنْهُ لدَىَ الغنا[1] عُهُـوداً قـديمـاَتٍ لَهـاَ مـاَ استلذَّتِ

صفحة (٣٢)

[٢٧٢]وَقَدْ تَطْرَب العَجْماَ عِنْدَ استماعِهاَ الـ ـغِنَـا وتَنْسَى عِـنْـدَهُ كُـلَّ غُـمَّـةِ
[٢٧٣]وَإلاَّ فَـمَا بَـالُ المـطيِّ إذاَ وَنَـتْ عَنِ السَّيْرِ هيجت في الفَلاَة بحدْوَة
[٢٧٤]فَتُصْغِي إلىَ الحَادِي بأسْماَعِها كمَاَ يكـونُ اسْتِماَعُ العـاَقِـلِ المُتَنصِّتِ
[٢٧٥]وَتُـوسِـعُ مَـدَّ الخَـطْوِ حَتَّى كـأَنَّها سَـفـاَئِنُ بَـحْـرٍ مُـقْـلِعـاَتٌ بِـلُجَّـةِ
[٢٧٦]وَيَـرْتَـاحُ بَعْضُ الـطَّيْرِ عنْدَ سَمـاَعِـهِ يُحـاَرِبُ أَوْتـاَراً إذاَ هِـي خَـشَّـتِ
[٢٧٧]وَمـاَ ذَاكَ إلاَّ أنَّ أفْـلاَكَـهَـا عَـلىَ مَـرَاكِـزِهَـا لَـماَّ استَـدَارتْ فَغَنَّتِ
[٢٧٨]فَصَارَتْ بحُكْمِ الطَّبْعِ تَشْتَاقُ مَـا بِهِ يُخَصِّصُـهـاَ مِنْ دوُنِ كُـلِّ مُـصَـوَّتِ
[٢٧٩]فَـلاَ تَحْسَبِ الأَشْيـاَ مُهـمَلةً كَـماَ تَـوَسَّم أَصْحَـابُ العُقُـولِ الضَّعِيفةِ
[٢٨٠]وَلِلْحوُتِ بَلْ للدوُّدِ في العُود بَلْ لِماَ سِـوىَ ذَاكَ أفْـلاَكٌ عليْهـا أُدِيـرَتِ
[٢٨١]وَفيهـاَ لَهـاَ آفـاَقُ جَـوٍّ فَـسِيحَـةٍ عَلَيْهـا نـرَاهـاَ نَحْنُ غَـيْرَ فَسِيحَـةِ
[٢٨٢]فَـمَاَ خَصَّ نَـوْعٌ لاَ يـتمُّ سِـوَاهُ مِـنْ مَـرَاكِـزِ أَفْـلاَكٍ وَأَوْضَـاعِ هَـيْئَـةِ

صفحة (٣٣)

[٢٨٣]وَكُـلٌّ لَـهُ عَـقْـلٌ يُـسَـدِّدُهُ إلىَ مقَـاَصِـدِ أَفْعـاَلٍ وَتَـرْكِ سـديـدة
[٢٨٤]وَمَـا النَّحْـلُ في أوْضـاَعِهـاَ لِبُيُـوتِهـاَ مُـسْـدَسَـةً مِنْ حِـكـمـةٍ بِـخَـلِيَّـةِ
[٢٨٥]وَقَـدْ يَعْجَزُ المَرْءُ المهندسُ وَضْعَهـاَ بِـالآتِـهِ الحِكْـمِيَّـةِ الهَـنْـدَسِيَّـةِ
[٢٨٦]وَجَعْـلِ لُعَـابِ العَنكَبـوُتِ لِصَـدِّه الـ ـذُّبـاَبَ شِـبـاَكـاً لَيْسَ إلاَّ لِخِبْـرةِ

---

(١) فى المخطوط : الغني .

[٢٨٧]وَيَفْهَمُ بعضُ الـدُّرِّ مقصـودَ بَعْضِـهِ بِـقُـوَّةِ إِدْرَاكٍ لِـنَـفْسٍ زَكـيَّـةِ
[٢٨٨]وَحَسْبُكَ إِلْفُ النَّوعِ بالنوع شَاهِدٌ بِمَعْـرِفَـةٍ فِي طَبْعِـهِ مُسْتَحَثَّـةِ
[٢٨٩]فَإِنَّ ازْدِوَاجَ الشَّكْلِ بالشَّكْلِ مُشْعِرٌ بِـقُـوَّةِ تَمْـيِـيـزٍ وصـحَّـةِ فِـطْرَةِ
[٢٩٠]وَلَـوْ(١) لَمْ يكُنْ إِلَّا تَـفَـاهُمُـهَـا إِذَا تَنَـاغَتْ بـأَصْـوَاتٍ لَهَـا أَعْجَمِيَّـةِ
[٢٩١]لَـكَـانَ لَنَـا فِيـهِ دَلِـيـلٌ يَـدُلُّـنَـا عَـلَى أَنَّ ذَا لَا عَنْ نُفُوسٍ بليـدةِ(٢)
[٢٩٢]فَـمَنْ ظَـنَّ شَيْـأً غَـيْرَ هَـذَا فَـإِنَّـهُ لِتقصِيـرِهِ عَـنْ فِكْـرةٍ مُستقيمـةِ
[٢٩٣]وَقَـدْ شَهِـدَ الـذِّكْـرُ الحكيمُ بـأَنَّها مُسَبِّحَـةٌ والـذِّكْـرُ أَعْـظَمُ حُجَّـةِ

صفحة (٣٤)

[٢٩٤]وَهَلْ يَصْدُقُ التَّسْبِيحُ مِنْ غَيْرِ عَـاقِلٍ وَلَكِن عُيُـونَ الجَهْـلِ غَـيْرُ بَصِيـرةِ
[٢٩٥]تَـأَمَّلْ صَـلَاةَ الشَّمْسِ عِنْـدَ وُقُـوفِهـا لَـدَى الظُّهْـرِ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ بِخَشْيَـةِ
[٢٩٦]وإِثْبَـاتِهـا وَقْتَ الـزَّوَالِ بِـرَكْـعَـةٍ وإِتْـمَـامِهـا عِنْـدَ الغُـرُوبِ بِسَجْـدَةِ
[٢٩٧]كَـذَا جُمْـلَةُ الأَفْـلَاكِ رَاكِـعَـةٌ بِمَـا جَـرَتْ سَجْدَةً لِلَّهِ فِي كُـلِّ طَرْفَـةِ
[٢٩٨]وَمَـاذَا الَّـذِي أَعْمَى عُيُـونَ قُلُوبِهِم وَنُـورُكَ فِـيهِـمْ مُـسْتَـطِيرُ الأَشِعَّـةِ
[٢٩٩]لَقَـدْ عَـظُمَتْ تِلْكَ الـرَّزِيَّـةُ مَـوْقِعاً لَـدَى كُـلِّ ذِي عَقْـلٍ سَلِيمٍ وَجَلَّتِ
[٣٠٠]أَرَى كُلَّ ذي سُكْرٍ سَيَصْحُو منَ الهَوَى سِوَايَ فَصَحْـوِي فِيكَ عِلَّةُ سكْـرَتِي
[٣٠١]فَـمَا اتَّفَقَتْ لِي مُـذْ عَـرَفْتُـكَ خَلْوَةٌ بِـنَفْسِي إِلَّا هُمْـتُ فِـيـكَ بِـجَلْوَةِ
[٣٠٢]وَلَا عَرَضَتْ لِي فِي دُجَى الفكْرِ هَجْعَةٌ فَـأَغْفَيْـتُ إِلَّا فُـزْتُ فِيـكَ بِيَقْـظَةِ
[٣٠٣]وَلَا اسْتَغْـرَقَتْنِي فِي المَحَـاسِنِ بَهْتَـةٌ فَثَـارَتْ بِحُسْنٍ غَـيْرِ حُسْنِـكَ بَهْتَتِي
[٣٠٤]وَلَا سَنَحَتْ فِي بَـاطِنِ القَلْبِ خَشْيَـةٌ فَكَـانَتْ لِشَيءٍ غَـيْرِ هَجْـرِكَ خَشْيَتِي

صفحة (٣٥)

[٣٠٥]وَلَا خَـضَعَـتْ نَفْسِي لأَمْـرٍ تَـرُومُـهُ فَكَـانَتْ لِشَيٍ غـيرِ وَصْلِكَ خَضْعَتِي

---

(١) مُبيَّنة في هامش المخطوط .
(٢) مصححة في الهامش الأيسر للصفحة .

[٣٠٦]وَلاَ اسْتَقْبَلَتْني مِنْ جَنَابِكَ نَفْحَةٌ ... أَسَرَّتْ حَدِيثاً عَنْكَ إلاَّ وَسَرَّتِ

[٣٠٧]وَأَصْغَى إلَى تَحْصِيله فِي مَسَامِعِ الـ ... مَشَاعِرِ مِنِّي كُلُّ مَنْبتِ شَعْرَةِ

[٣٠٨]وَأَحْسَسْتُ في نَفْسي بلُطْفِ دَبِيبِ مَا ... سَقَتْ مِنْ حُمَيَا الحُبِّ لَمَّا تَمَشَّتِ

[٣٠٩]وَهَلْ شَارِبٌ كَأساً مِنَ الحُبِّ جَاهِلٌ ... بِمَا أَحْدَثَتْ في عَقْلِهِ حِينَ دَبَّتِ

[٣١٠]فَقَدْ حَقَّقَ الدَّعْوَى القِيَاسُ وأَيْنَ مِنْ ... كَثَافَةِ جِسْمِ الخَمْرِ لُطْفُ المَحَبَّةِ

[٣١١]إذَا غِبْتَ عَنِّي كُنْتُ عِنْدَكَ حَاضِراً ... وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ غَيْبَتِي فِيكَ حَضْرَتِي

[٣١٢]فَيَا بَاطِناً أَلْقَاهُ في كُلِّ ظَاهِرٍ ... وَيَا أَوَّلاً مَازَالَ آخِرَ فِكْرَتِي

[٣١٣]تَشَابَهَ إعْلاَني وَسِرِّي وَمَشْهَدِي ... وَغَيْبِي وَسَتْرِي في هَوَاكَ وشُهْرَتِي

[٣١٤]تَجَمَّعَتِ الأَضْدَادُ فيَّ وَلَمْ يَكُنْ ... بِمُسْتَغْرَبٍ لِي فِي الهَوَى كُلُّ بِدْعَةِ

[٣١٥]فَنَوْعِي فِي شَخْصِي لاَ فِي نَتِيجَةٍ ... لِشَكْلِ قِيَاسٍ عَنْ ضُرُوبٍ عَقِيمَةِ

صفحة (٣٦)

[٣١٦]مَلأْتَ جِهَاتِي الستّ مِنْكَ فَأَنْتَ لِي ... مُحِيطٌ وأيضاً أَنْتَ مركزُ نُقْطَتِي

[٣١٧]فَصِرْتُ إذَا وَجَّهْتُ وَجْهِي مُصَلِّياً ... فَرَايِضَ أَوْقَاتِي فَنَفْسِي كَعْبَتِي

[٣١٨]فَصَارَ صِيَامِي لِي وَنُسكِي وَطَاعَتِي ... وَنَحْرِي وَتَعْرِيفِي وَحَجِّي وَعُمْرَتِي

[٣١٩]وَحَوْلِي طَوَافِي وَاجِبٌ وَخِلاَلُه اسـ ... تِلاَمِي لِرُكْنِي مِنْ مَنَاسِكِ حَجَّتِي

[٣٢٠]وَذِكْرِي وَتَسْبِيحِي وَحَمْدِي وَقُرْبَتِي ... لِنَفْسِي وَتَقْدِيسِي وَصَفْوِ سَرِيرَتِي

[٣٢١]لَوْ هَمَّ مِنِّي خَاطِرٌ بِالتِفَاتَةٍ ... لَمَا كَانَ لِي إلاَّ إلَيَّ تَلَفُّتِي

[٣٢٢]وَلَوْ لَمْ أُؤَدِّ[1] الفَرْضَ مِنِّي إلَيَّ لَمْ ... يَصِحَّ بِوَجْهٍ لِي وَلَمْ تَبْرَ ذِمَّتِي

[٣٢٣]وكُنْتُ عَلَى أنِّي أُوَحِّدَ ظَاهِراً[2] ... فَفِي بَاطِنِي قد دِنْتُ بالثنويَّة[3]

[٣٢٤]كَذَا مَنْ يَكُنْ قَدْ صَحَّ عَقْدُ وِدَادِهِ ... وَلَمْ يُتَّهَمْ يَوْماً بِسُقْمِ عَقِيدَةِ

[٣٢٥]وَيَنْفِي اتِّصَالَ النَّفْسِ بالعَقْلِ وَاقِفاً ... عَلَى حِسِّ مَا فِي عَالَمِ الحِسِّ أَبْلَتِ

---

(١) في المخطوط : اودى .

(٢) في المخطوط : طاهرا .

(٣) الثنوية مذهب يقول بمبدأين يدبّران العالم .

[٣٢٦]فَإِنْ قَهَرَتْ فِيهِ قُوىَ الجِسْم أُلْحِقَتْ بِعَالِمِهَا مَمْلُوَّةً بَالمَسرَّةِ

صفحة (٣٧)

[٣٢٧]وَإِنْ قَهَرَتْ فِيهِ القُوَى النَّفسَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ طِوَالَ الدَّهْرِ يَوْماً بِحِيلَةِ
[٣٢٨]وَتبْقَى كَمَا قَدْ جَاءَ تَهْوِي وَلَيْتَهَا هَوَتْ مَا هَوَتْ ثمَّ ارْعَوَتْ واستقرَّتِ
[٣٢٩]ولكنَّهَا تَبْقَى بِنيرَانِ حَسْرةِ الـ بُعَادِ تُقَاسِي ضِيقَ أَغْلَالِ كُرْبَةِ
[٣٣٠]مُذَبْذَبَةٌ لَا عَالَمَ العَقْلِ أدركَتْ وَلَا عَالَمَ الأَجْسَامِ فِيهِ تَبَقَّتِ
[٣٣١]فَتُرجِعُ لِوَاجِدِي[1] الحَنِينِ حَنِينَهَا إلى عَالَمِ العَقْلِ الَّذِي عَنْهُ صُدَّتِ
[٣٣٢]وَهَيْهَاتَ أَنْ يطوي لِسَيْرِ حَنِينِهَا إِلَيْهِ الَّذِي قَدْ حَالَ مِنْ بَعْدِ شقةِ
[٣٣٣]وَأَنَّى لهَا والحسُّ قَدْ حَالَ بَيْنَهَا وبَيْنَ حِمَاهُ أَنْ تَفُوزَ بِنَظْرَةِ
[٣٣٤]إِذَا ذَكَرَتْهُ هَزَّهَا مَسُّ طَايِفٍ مِنَ الشَّوْقِ لَوْ هَزَّ الجِبَالَ لَهُدَّتِ
[٣٣٥]وَمَا ذَاكَ بالمُدْنَى إِلَيْهِ وَلَا الَّذِي إِذَا لَمْ يَكُنْ يُدْنَى فَرَبحَ بِوَقْفَةِ
[٣٣٦]أنى كُلَّمَا قِيلَ انقَضَتْ مِنْهُ لَوْعَةٌ أُعِيدَتْ بِأُخْرَى مِثْلِهَا مُسْتَحَثَّةِ
[٣٣٧]تَزُولُ الجِبَالُ الشُّمُّ وهي مُقِيمَةٌ عَلَى حَالَةٍ مَنْكُوسَةٍ مُسْتَمِرَّةِ

صفحة (٣٨)

[٣٣٨]وَذَلِكَ أَمْرٌ نَسْأَلُ اللَّهَ عِصْمَةً مُنَجِّيَةً مِنْهُ ومِنْ كُلِّ حيرةِ
[٣٣٩]أَلَمْ يَكُ فِيمَا نَالَ آدَمَ عِبْرَةٌ وَمُتَّعظٌ لِلْعَاقِلِ المُتَثَبِّتِ
[٣٤٠]عَلَى قُرْبَةٍ مِنْ رَبِّهِ واصْطِفَائِهِ وَمِنْحَتِهِ إِيَّاه أَعْظَمَ مِنْحَةِ
[٣٤١]وإِبْعَادُه مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَصَدُّهُ وَتَجْرِيعُهُ إِيَّاهُ أَعْظَمَ غُصَّةِ
[٣٤٢]وَلَمْ يَأْتِ ذَنْباً عَامِداً غَيْرَ أَنَّهُ بِأَوَّلِ حُكْمِ اللَّهِ طَالِبُ رُخْصَةِ
[٣٤٣]فَأَخْطَأَ فِي التَّأْوِيلِ جَهْلاً فَحَطَّهُ إِلَى الأَرْضِ مِنْ أَعْلَى الجِنَانِ المُنِيفَةِ
[٣٤٤]وَلَمْ يُخْفِ مَا لَاقَى إِذ انْحَطَّ هَابِطاً إِلَى الأَرْضِ مِنْ هَوْلِ الأُمُورِ العَظِيمةِ
[٣٤٥]وَمَازَالَ يَدْعُو اللَّهَ سِرّاً وجَهْرَةً وَحَاوَلَ مِنْهُ العَفْوَ عَنْهُ بِتَوْبَةِ

---

(١) في المخطوط : لواحدى .

[٣٤٦]وكَيْفَ بِمَنْ يَأْتِي ذُنُوباً كَثِيرَةً ... وَيَقْضِي وَمَا وَافَ بِتَوْبَةٍ مُخْبِتِ
[٣٤٧]وَكَمْ جَاهِلٍ لَمْ يَزْدَجِر بالَّذِي جَرَى ... عَلَىَ آدَمَ مِنْ فِعْلِهِ كُلَّ خِزيَةِ
[٣٤٨]لَقَدْ شَمِلَ الخَيْرُ الوُجُودَ بِأَسْرِهِ ... فَمَا كَانَ مِنْ شَرٍّ فَذَاكَ لِنُدْرَةِ

صفحة (٣٩)

[٣٤٩]وَلَمْ يَكُن المَقْصُودَ بالذَّاتِ إِنَّمَا ... أَتَى بِطَرِيقِ الضِّمْنِ والتَّبَعِيَّةِ
[٣٥٠]أَلَمْ تَرَ أَنَّ الغَيْثَ خَيْرٌ وَأَنَّهُ ... لِيَحْصُلَ مِنْهُ وَكْفُ بَعْضِ الأكنَّةِ
[٣٥١]وَأَنَّ لَهِيبَ النَّارِ لِلثَّوْبِ مُحْرِقٌ ... وَيَحْصُلُ مِنْهُ نُضْجُ كُلِّ مَعِيشَةِ
[٣٥٢]فَقَدْ يُتْبِعُ الخَيْرُ الكثيرُ الَّذِي تَرَىَ ... لَنَا[1] فيهِمَا شَرّاً يَسِيرِ المَضَرَّةِ
[٣٥٣]وَلَوْ رُوعِيَ الضُّرُّ الَّذِي فِيهِما لَنَا ... وَلَمْ يُخْلَقَا لاخْتَلَّ نَظْمُ الخَلِيقَةِ
[٣٥٤]وَكَانَ هَلاَكُ الحَرْثِ والنَّسْلِ عَاجِلاً ... وَذَاكَ بِلاَ شَكٍّ خَرَابُ البَسِيطَةِ
[٣٥٥]وَلَمْ يَكُ إِلاَّ عَالَمُ الأَمْرِ وَحْدَهُ ... وَلَمْ يَخْفَ مَا فِي ذَاكَ مِنْ نَقْصِ خِلْقَةِ
[٣٥٦]وَفِي الحَشَرَاتِ السَّاقِطَاتِ مَنَافِعٌ ... يُحِيطُ بِهَا أَهْلُ العُقُولِ السَّلِيمَةِ[2]
[٣٥٧]وَلَوْ لَمْ تَكُنْ مَا عَاشَ مِنْ نَوْعِنَا امْرِءٌ ... لِفَضْلِ بُخَارَاتِ الهَيُولَىَ الرَّدِيَّةِ
[٣٥٨]فَمِنْ ذَلِكَ الفَضْلِ الرَّدِي تكوَّنَتْ ... وَفِي مَدْخَلِ الأَوْسَاخِ فِي الأرضِ حَلَّتِ
[٣٥٩]وَغُودِرَ مَا نُلْقِيهِ مِنَّا غِذَاؤُهَا ... لِصَفْوِ الهَوَى مِن شَوْبِ كُلِّ أَذِيَّةِ

صفحة (٤٠)

[٣٦٠]لِتَنْتَعِشَ الأَرْوَاحُ مِنَّا بِطِيبِهِ ... وَيَصْفُو لَنَا وردُ الحَيَاةِ الهَنِيَّةِ
[٣٦١]وَقَدْ تُرَكَّبُ الأَجْسَامُ مِناً وَكلُّهَا ... تَرَكُّبُ مُنْحَلٍّ وَلَوْ بَعْدَ بُرْهَةِ
[٣٦٢]وَأُلْبِسَ مِنَّا كُلُّ جُزْءٍ بِحَيِّزٍ ... لأَرْكَانِنَا الذَّاتِيَّةِ العُنْصُرِيَّةِ
[٣٦٣]وَمَا جَمْعُنَا بَعْدَ افتراقٍ بُمعجِزٍ ... لأنَّ وُجُودَ المكنِ فِي البِدَايَةِ
[٣٦٤]وَإِنَّ مُعَادَ الشَّيءِ بَعْدَ انعدامِهِ ... لأَسْهَلُ مِنْ إِنْشَاءِ بَدْأَةِ

---

(١) في المخطوط : لمنا .
(٢) في الهامش الأيسر من المخطوط : الصحيحة .

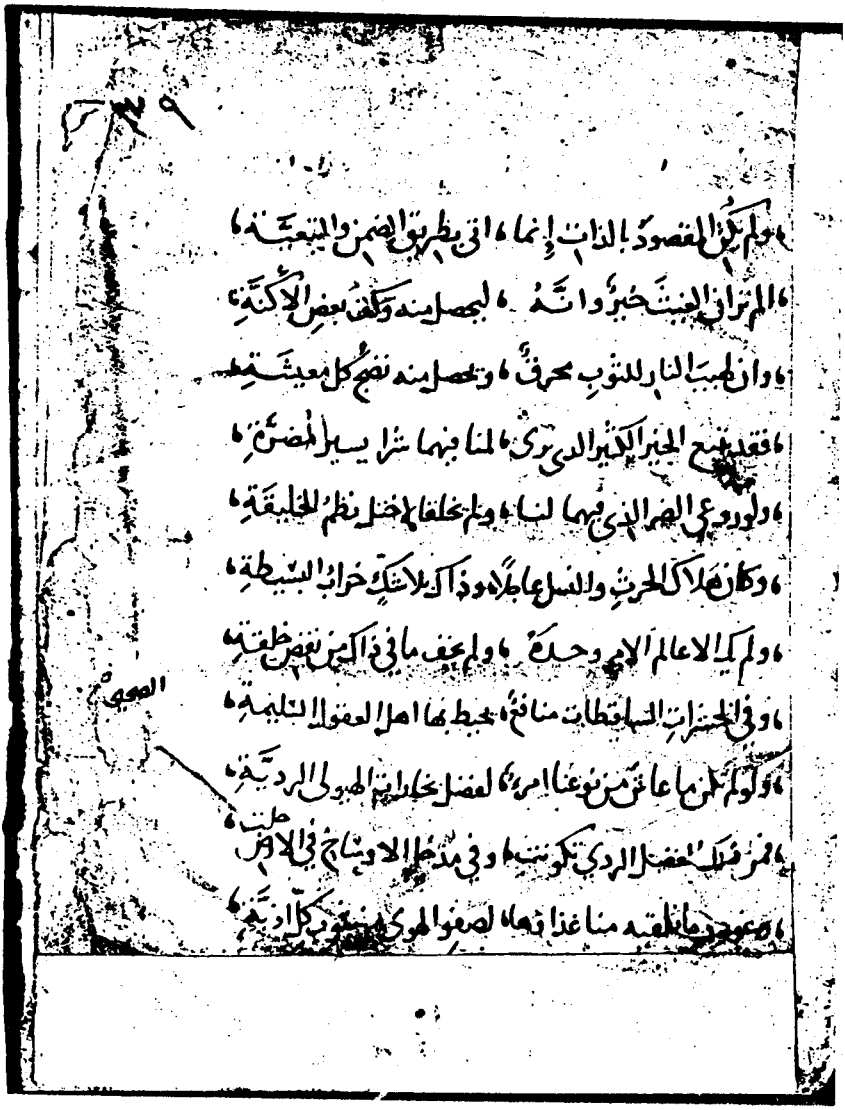

شكل (٤)

الصفحة قبل الأخيرة من تائية الغزالي .

(القسم الثاني من مخطوط مكتبة جامعة القاهرة - رقم : ٢٣٣٤٥)

[٣٦٥]وَمُطْلِعُ شَمْسِ النَّفْسِ مِنْ مَشْرِقِ الخَلَا سَيُطْلِعُهَا مِنْ مَغْرِبِ العَدَمِيَّةِ
[٣٦٦]فَسُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي بِقُدْرَتِهِ الَّذِي يُمِيتُ كَمَا أَحْيَاهُ أَوَّلَ مَرَّةِ

تَمَّت بِحَمْدِ اللَّهَ تَعَالَى وتوفيقه في خَامِس عشر
ربيع الآخر سنة اثنين وثمانين وثمانمائة
وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ٨٨٢ »

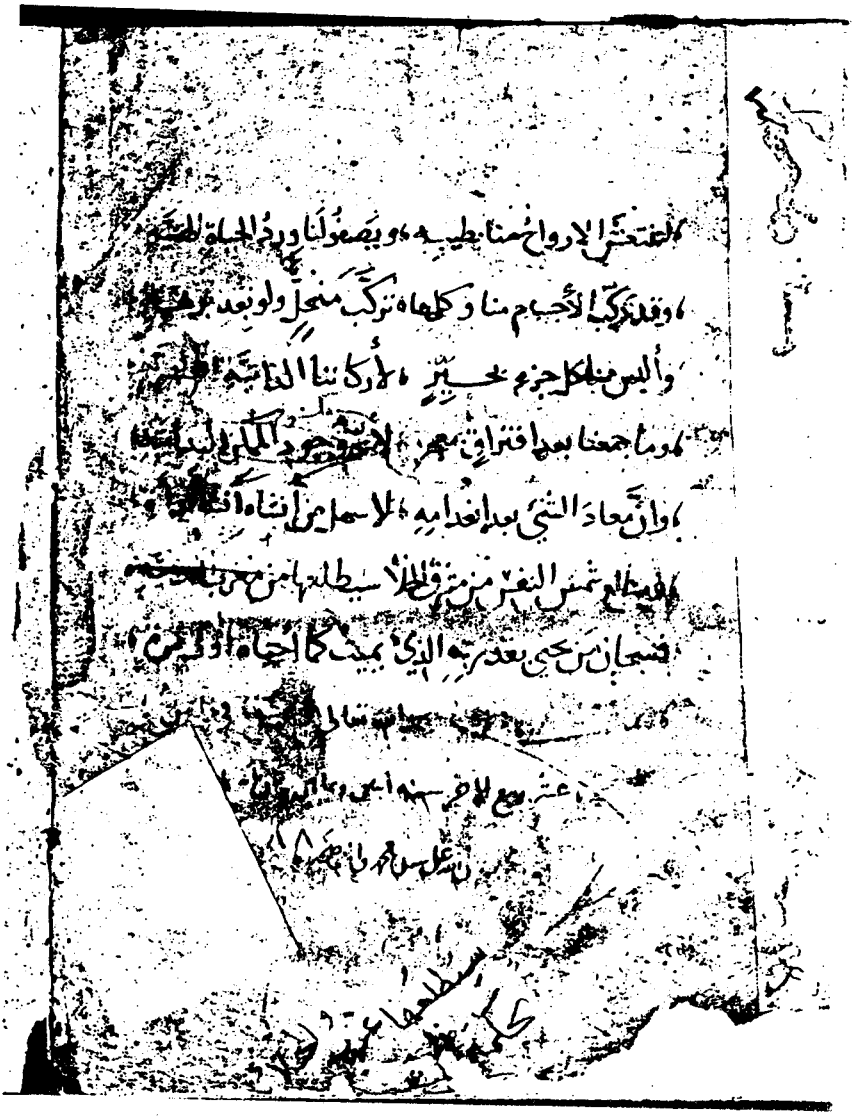

شكل (٥)

الصفحة الأخيرة من تائية الغزالي .

(القسم الثاني من مخطوط مكتبة جامعة القاهرة - رقم : ٢٣٣٤٥) فُرغ من نسخ المخطوط في الخامس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٨٨٢ هـ = ١٤٧٧ م .

مضمون القصيدة التائية

الأبيات : ١ إلى ١١

يشير الناظم في خطبته إلى حيرة العقل في الخالق ، فهو وإن كان أقرب الأشياء إلى الانسان (تمثّلاً بالآية الكريمة : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[١]) ، فهو أبعد الأشياء عن الرؤية ، فهو الظاهر وهو الباطن ، لا يراه المرء (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)[٢] في حين يعرفه العقل والقلب ، تدركه البصيرة وتعلم انه محيط بكل شيء ، لا قوام لشيء بدونه ، ولو تجلّى الله للجبل لدُكَّ من فوره (فلما تجلّى ربُّه للجبلِ جعله دكاً وخرَّ موسى صعقا)[٣] .

الأبيات : ١٢ إلى ٢٨

وتتضمّن حديثاً إلى النفس ، وضرورة تنزيهها عن كدورات عالم الطبيعة ، والبعد بها عن لذّات الدنيا ، ومخالفة هواها ، وحفظها وصونها ، وهنا يَسِمُ الناظم الجسم بالظلمة ، والنفس بالنور ، ويشير إلى أنّه يمكن بالافعال أن تنهج النفس منهج الشياطين فتشقى ، أو أن تسلك سبيل الملائكة فترقى .

الأبيات : ٢٩ إلى ٤٠

يذكر الناظم أنه بالنفس الزكية يُرى النور الإلهى ، وينعكس لوح الغيب في مرآة النفس ، فتقف على الحقيقة المطلقة التى لا يثبت معها شك ولا تقوم فيها ريبة ، ويُطبع ما في اللوح في النفس ، وهو بهذا يشير إلى أحوال كشف ومشاهدة .

الأبيات : ٤١ إلى ٦٤

يتساءل الناظم كيف يطمع الجاهل في الجنة ، وقد أُخرج آدم منها بسبب زلّة ، بيْد أن

---

(١) سورة ق ، الآية ١٦ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٤٣ .

الأمل في الشفاعة يقرِّب الرجاء ، إن سعى لها سعيها ونحى إلى التقوى ، وعزف عن الأمانى الخادعة . وليأخذ ابن آدم من قصة أبيه عبرة ، ويدرك حتمية الحساب ، وحكمة الحياة والممات ، وأن هذا الكون لم يُخلق عبثا ، بل إن هناك خالق قدير مدبِّر عالم عادل حليم ، والأوْلىَ بالعبد أن يبتعد عن الرذائل والنقائص فهى من المهلكات .

الأبيـــات : ٦٥ إلى ٨٧

يتحدث الناظم هنا عن النفس الصافية ، وعن محبتها للّه وأنسها به ، ونشوة هذا الائتناس ، وتشبيهه بنشوة الخمر على طريقة الرمز الصوفية ، وسكر العارفين ، وغياب العقل فناءً في المعبود ، فيهبها الله عزل وجل رحمة وحكمة تعز على العقل الواعي ، فَتُدرك من كُنْه الملكوت ما لا تصل إليه العقول الواعية .

ويشير الناظم إلى أنَّ الولادَة غربةٌ ، وأن الموت إياب وعودة إلى الوطن ، ومن ثمّ فأولى بالمرء البكاء عند الولادة ، والمسرَّة عند الموت والفراق لما هو مقدمٌ عليه من العود إلى الأهل والعشيرة .

الأبيـــات : ٨٨ إلى ٩٧

يتعجب الناظم من عَبَدَة الأوثان ، ، وكيف أن هذا المنحى يباعد بين العبد وخالقه ، فيودي به إلى الخسران والتهلكة ، وكل فعل لا يقرِّب إلى الله تعالى ففيه ضياعٌ وذلّ ، وحسرة وضُرّ ، والغافل من يغفو عما نُهِىَ عنه ، فليهنأ بفرط العقوبة .

الأبيـــات : ٩٨ إلى ١١٩

ويعبِّر فيها الناظم عن شديد حيرة عقله في أمر مولاه ، ويطلب العفو إن هو شطح ، فذاك قليل إلى جنب ما حلَّ به من سُكْر ووجد ، فإن كان من شَرب من بقية كأسه قد أصابه ما أصاب قيس ليلى العامرية ، فما باله وقد شرب جُلَّ الكأس .

ويستطرد الناظم مشيراً إلى أنَّه بالرغم من جهده في التستُّر على هواه ، فقد افتضح اشتياقه لمولاه بعدما مُنِع من الصبر على الهوى .

الأبيـــات : ١٢٠ إلى ١٢٩

يستبد الشوق بالناظم حتى يصل به الحبُّ والعشق إلى حالة الاستغراق ثمَّ الفناء بالكليّة في الله عزَّ وجل ، فلا يشعر بوجود لذاته إلى جانب وجود الذات العليَّة ، وهنا تظهر كلمة وحدة لاسيما في البيت (١٢٦) ، وقد يذهب البعض إلى أن هذا تعبير عن فكرة الاتحاد ، وهى فكرة عارضها الغزالي في كتاباته كما سبق وأن أشرنا ، ومن ثمّ دفع البعض إلى ترجيح عدم صحَّة نسبة القصيدة التائية للغزالي ، بيْد أنَّنا إن رجعنا إلى أقوال الغزالي عن هذه الحال نجده يقول في كتابه « المنقذ من الضلال »[1] :

« ثمَّ تَرْقَى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق العبارة ، فلا يحاول مُعَبِّرٌ عنها إلاَّ اشتمل لفظُه على خطأ صريحٍ لا يمكنه الاحتراز منه .

وعلى الجملة ، ينتهى الأمر إلى قربٍ يكاد يُتخيَّلُ منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بَيَّنا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الأسنى » . . . . »

وكأنمَّا يصف الغزالي حاله في هذه المجموعة من الأبيات ، فهى وإن أوحت إلى البعض بأنَّ الناظم ينحو إلى فكرة الوحدة أو الاتحاد ، إلاَّ أن الغزالي يقدم العذر عما يصيب العارف عندما يعرض لحال الفناء هذه ، فلا يكاد يتبيَّن موقعه ومقامه ، ويحاط بالذات العليَّة من كلِّ صوب ، فإن فُهم من التعبير تلميح إلى وحدة أو اتحاد أو حلول أو وصول ، فلا أخالني إلاَّ أن أراه تعبيراً عن فناء حقيقى يحس به العابد وليس كما يبدو حلولا أو تقمُّصاً أو اتحادا ، ولله درُّ الغزالى الذي يقول عن هذه الحال :

« فلا يحاول مُعَبِّرٌ أن يعبرَّ عنها (أى عن هذه الحال) إلاَّ اشتمل لفظُه على خطأٍ صريحٍ لا يمكنه الاحتراز منه » .

---

(١) بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، صفحتا ١٤٥ ، ١٤٦ .

وبهذا الفهم لا يكون الناظم قد خرج على فكر الغزالي ، ولا يكون ذلك مدعاةً إلى التشكك أو التشكيك في نسبة القصيدة التائية للغزالي .

الأبيـــات : ١٣٠ إلى ١٤١

يُبيِّن الناظم هنا أنَّ الله جعل الإنسان خليفته في الأرض ، فإن هو صلح حاله حَسُنت عودة نفسه إلى الملأ الأعلى ، حيث ترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر ، أماً إن آثرت نفسُه الدار الزائلة على الدار الباقية الخالدة ، فإنها تكون بالجهل قد وُسمت ، وفي لجَّة الحسرة والأسى قد غرقت .

الأبيـــات : ١٤٢ إلى ١٦٥

يشير الناظم إلى وقوف النفس بالبرزخ ، وإحساس النفس المطمئنة بلذة العود إلى الأهل والوطن والمنتمىَ ، وأنىَّ ينفع ندم أو تفيد حَسْرَةٌ إن زلَّت نفس خبيثة فأوْدت بصاحبها دار البوار ، وأكسبته عظيم اللعنة ، وحط الرتبة وفوات الفرصة .

الأبيـــات : ١٦٦ إلى ١٨٢

يعرج الناظم إلى إبداع الخالق في خلق الإنسان وتكريمه ، وقد أمر الله الملائكة بالسجود تعظيما لخَلْقِه الإنسان ، الذي علَّمه البيان ، كما سخَّر الله له ما على الأرض لخدمته ، فهل يبقى ـ والحال على هذا النحو ـ إلاَّ أن يصل المرء ربَّه ، ويحرص على تقواه وصحبته ، وينعم بحبِّه ويتفانى في مرضاته ، ويتوحش عن الخلق والأهل ليسعد بالقرب من الله ، والأنس به .

الأبيـــات : ١٨٣ إلى ٢٠٥

يبيِّن الناظم هنا سعادته وفرحته عندما يترك عالم الحسّ ليخلو إلى مولاه ، ويفارق الوطن والأهل والجيران فراراً إلى الله تعالى ، ولعلَّ الغزالي يُشير (كما هو وارد في البيت ١٨٥) إلى قراره ترك بغداد والاعتكاف والعزلة في الشام زهاء عشر سنوات على وجه التقريب ، وهي الفترة التي قضاها في التعبُّد ودراسة سلوك المتصوِّفة وممارسته ، ويخاطب الناظم نفسه ، ويُمنِّيها بقبول الله لتقرُّبها ، ثم يعود فيذكر أنهَّ ما هو « إلاَّ نطفة من سلالة لطين » كذا « وأن قدري

دون مقدار ذرَّة » ، وما أضعف شأن النطفة والذرَّة ، فهل يصدق لقائل هذه الأبيات أن يكون من أصحاب مذهب الاتحاد والوحدة والحلول والوصول ؟ إنَّما هى كما ألمحنا حال صفاء وشفافية وشهود ، يتوه فيها العبد فلا يحسُّ إلاَّ بكيان صاحب الملكوت ، فلا يجد لذاته موضعا إلاَّ فيه ، ولا غرْو فالأصل المطلق عدم الكينونة إلاَّ لله وبالله .

وإنَّ الناظم مع تسليمه بضآلة قدره ، فإنَّه يسأل مولاه على قدر إحسانه وفيْض رحمته ، وهو في مسعاه هذا لا ييأس من استجابة مولاه ولا يخجل من صدِّه وطرده ، بل إنهَّ يصرُّ ويلحُّ في السؤال ، ويجعل من باب فضل الله قبلته ، فلا يزال يعترف بذنْبه ، ويطلب قبول توبته طمعاً في رضاء الله عنه ، وهو ـ في هذه الحال ـ لا يعزب عن باله أن يعدِّد نِعَم الله عليه ، وإسباغ فضله وحكمته وعلمه عليه .

الأبيـــات : ٢٠٦ إلى ٢٢٢

يتعجب الناظم هنا كيف يطمع الإنسان في فهم المعانى البعيدة وهو لم يع بعد نفسه التي بين جنبيه ، وحَرِىٌّ به أن ينفض عنها الجهل ، ويرقى بها إلى رتبة النفس النفيسة ، فيدرك العلَّة الأوليَّة ، ويقف على سرّ معنى النبوَّة ، وشتان ما بين نفسٍ نفيسةٍ ، ونفسٍ خسيسة ، وإن انحدرا من نفسٍ واحدة هى نفس أبي البشرية آدم .

الأبيـــات : ٢٢٣ إلى ٢٤٩

يعترف الناظم بفضل الله تعالى عليه ، وينبرى للثناء عليه ، مُعَدِّداً نعمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصىَ ، ثمَّ يعرج إلى حديث مع نفسه العليا ، فيصف لوعته وحنينه وشوقه إليها ، وما تكابده نفسه الدنيا في سبيل وصلها .

الأبيـــات : ٢٥٠ إلى ٢٧٨

تشير هذه الأبيات إلى معرفة المُغَيبَّات وإلى معنى الوحي ، وإلى إدراك النفس لأمور عايشتها في عالم الغيب قبل أن تتصل بالجسد لتحيا فترة في عالم الشهود .

الأبيـــات : ٢٨٠ إلى ٢٩٩

يلفت الناظم النظر إلى حكمة الله في خلقه ، وإلى أنَّ كُلَّ شيء عنده بمقدار ، فيضرب أمثالا لحكمة الله في الحوت والدود والنحل والعنكبوت ، ويشير إلى أن كُلَّ شيء يسبِّح بحمده وإن كُنَّا لا نفقه تسبيحه ، وهل يصدق التسبيح إلا عن عاقل ، ويدعو الناظم إلى تأملِّ حركة الأفلاك ، وكل هذه آيات تدلُّ على عظمة الخالق وعلى دقَّةِ صُنْعِه وبالغِ حكمتِه .

الأبيـــات : ٣٠٠ إلى ٣١٥

يعرض الناظم فى هذه الأبيات إلى خَلْوته مع الله سبحانه وتعالى والأنس به ، وقد ملأ ذلك عليه كل جوارحه ، فصار مستغرقاً غائباً تماما فى الذات العليَّة ، وهى في ذات الوقت حضرته ، لأنَّه في غياب الاستغراق لا حضور له ، ولا أدلّ على ذلك مما جاء في الأبيات ٣١١ إلى ٣١٥ .

الأبيـــات : ٣١٦ إلى ٣٢٣

يستطرد الناظم في وصف حال استغراق القلب ، فيشير إلى إحاطة الله به من كل جانب ، فإلى أى جهة توجَّه فثمَّ وجه الله ، ومن هنا قد يتطرَّق إلى الذهن ذهاب الناظم إلى فكرة الوحدة أو الاتحاد أو الحلول ، وإنَّما هى ـ كما أسلفنا ـ حالُ فناء بالكليَّة في الله ، فلا يرى الواصل إلاَّ الذَّات العليَّة ، ولا يحسُّ إلاَّ بها ، وقد ملأت عليه كلَّ نفسه .

الأبيـــات : ٣٢٤ إلى ٣٤٧

يصف الناظم الصراع بين النفس ونوازع الجسد ، ويذكر ما عساه يحدث من بلاء وعذاب إن هى انتصرت قوى الجسم على النفس ، فتُصَدُّ عن عالم العقل ، وتُبْعَدُ عن عالم الأجسام ، ويسأل الناظم ربه أن ينجيه من مثل هذه الحال ومن كلِّ حيرة ، ويشير إلى أخذ العبرة من قصة أبي البشر آدم الذي زلَّت قدمه مع قُرْبِهِ من ربِّه واصطفائه له .

الأبيـــات : ٣٤٨ إلى ٣٦٠

تشير هذه الأبيات إلى كمال العالَم ، ووجود الخير والشرِّ ، والنفع والضرر ، وإلى حكمة

الله فى ذلك ، وإلّا اختلّ نَظْم الخليقة ، ويدلِّل الناظم على ذلك بأمثلة منها الغيث والنار والحشرات .

الأبيـــــات : ٣٦١ إلى ٣٦٦

يختتم الناظم قصيدته بالإشارة إلى تركُّب الأجسام وانحلالها ، وإلى أنَّ البعث والإعادة والنشور لهي أيسر على الله من النشأة الأولى ، فسبحن من أحيا وأمات ثُمَّ إليه المآل ، سبحان القدير الخبير ، سبحان مقلِّب القلوب ومغيِّر الأحوال .

* * *

لعلَّ هذه الدراسة المقتضبة تكون قد أوضحت أهمَّ الأحداث في سيرة حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالي ، وأن تكون قد بيَّنت الطريق الذي سلكه في سعيه الدءوب لمعرفة الحقيقة ، ولعلَّنا نكون قد وُفِّقنا في بيان منحاه الفلسفي ، ومنهجه الفقهي ، وأن نكون قد ألْقينا مزيداً من الضوء على فكره ونوازعه ، وشكِّه وحيرته ، وعُزلته وخلوته ، وأن نكون قد بيّنا التناسق والتآلف بين ما ورد في كتاباته من مضامين ، وما جاء في « القصيدة التائيَّة » من معان ، وأن نكون قد ألمحنا إلى الارتباط بين أبيات من هذه القصيدة ، وبين بعض الأحداث التي مرَّ بها حجَّةُ الإسلام ، ولعلَّ عدم تعارض محتوى القصيدة مع فكر الغزالي فضلا عن غياب من يُنازعه في نسبتها ، لَعَلَّ ذلك كلَّه يدعونا إلى ترجيح نسبة هذه القصيدة إلى حجة الإسلام الإمام الغزالى . والله أعلم .